کاری از مرکز بررسی های اسلامی

http://iscq.ir/fa_default.asp

/http://www.khosroshahi.ir

فصل اول تا باب النتف

السید جمال الدین الحسینی الأفغانی

الشیخ محمد عبده

العروة الوثقی

اعداد وتقدیم

سید هادی خسرو شاهی

تعریف بمجموعة الآثار

للسید جمال الدین الحسینی

الأفغانیـ

بسم الله الرحمن الرحيم

يقر المؤرخون والباحثون المعاصرون بأن السيد جمال الدين الحسينى المعروف بالأفغانى،لم يكن له دور رائد فى صحوة الشرق فحسب،بل إنه كان باعث الإصلاحات الاجتماعية ومؤسس الحركات الإسلامية وانتفاضات الشعوب

الشرقية المناهضة للاستعمار،فى القرن المنصم والحاضر!...

وقد صرحت شخصيات بارزة كالشهيد الأستاذ مرتضى مطهرى والأستاذ سيد محمد محيط طباطبائى والسيد حسن تقى زاده فى إيران والشيخ محمد خاطر (المفتى) والشيخ عبد المنعم النمر والدكتور عثمان أمين، والدكتور محمد عمارة والدكتور حسن حنفى فى مصر، وعشرات من العلماء والمفكرين والأساتذة الآخرين بحقيقة، أن السيد، وبالنظر إلى خصائصه الذاتية والمكتسبة، قد ترک تأثيراً عميقًا وشاملا بين الخاصة والعامة من الناس، فى البلاد الإسلامية وبلاد الشرق...فلو قمنا بدراسة دقيقة ومتأنية فى أحداث القرن الماضى،لرأينا فى طليعة كل نهضة إسلامية وتحريرية،أحد تلامذته أو خريجى مدرسته رائدًا وقائدًا...

طبعا كان الاتصال المباشر والتواصل الدءوب مع علماءالدين والمثقفين والمفكرين وإلقاء المحاضات القيمة فى المساجد والمحافل العامة والمراكز العلمية والثقافية فى مختلف البلدان، أحد أهم أساليب السيد فى بث فكرة النهضة والصحوة بين الشعوب وقيادتها...إلا أن تأليفات ـ رسائل ومقالات ـ السيد، الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية،كان لها دور وتأثير أكبر من خطبه ومحاضراته فى انطلاق الحركة وصحوة الشعوب واستمرارها. فقد ترک لنا السيد طوال إقامته فى إيران والهند وأفغانستان ومصر وتركيا وفرنسا وبريطانيا،رسائل ومقالات ومحاضرات دراسية كثيرة، تناول فيها العديد من المواضيع العلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية. وما ينبغى أن نشير إليه هنا، هو أن مقدار ما وصل إلينا من السيد، أقل مما قام بتحريره أو أعده بواسطة أصدقائه وتلاميذه....فبسبب الصدام والاشتباک الدائم الذى خاضه السيد ضد الاستعمار والأجهزة الحكومية المستبدة والعميلة، فإن جزءًا من تأليفات وآثار السيد، خاصة ما نشر باسم مستعار أو بدون اسمه،لا يمتلكه اليوم عامة الناس!...أو لأن النسخ الخطية، بقيت مكتومة لدى الأشخاص أو أنها فقدت تدريجيًا إثر النزوح والنفى الذى تعرض له السيد عبر أسفاره الإجبارية!... وفى الوقت نفسه، ينبغى أن نقول إن تأليفات وآثار السيد المتوفرة حاليًا، هى أكثر مما كان يعتقد ولحسن الحظ وخلال السنوات الأخيرة وبجهود لفيف من الباحثين، ثم العثور على جزء آخر من آثار السيد أو تمت ترجمتها من اللغات الأخرى إلى العربية وهذا أمر لافت للنظر.

... وبشكل عام يمكن تقسيم تأليفات السيد جمال الدين الحسينى إلى عدة أنواع:

١ ـ المقالات والرسائل التى كتبها خلال إقامته فى الهند وإيران، مثل: رسالة الرد على الدهريين ورسالة حقيقة المذهب النيتشرى أو المقالات التربوية والأخلاقية والثقافية، التى نشرت فى مجلة «معلم شفيق» الهندية والمجلات الأخرى – فى الهند و إيران ـ آنذاك، ثم صدر قسم منها فى مجموعة تحت عنوان: «مقالات جمالية».

٢ ـ التعليقات والمقالات والرسائل الكلامية والفلسفية والعرفانية... ومعظمها كانت حصيلة إقامة السيد فى أفغانستان ومصر وإيران وتدريسه الفلسفة فى مصر، مثل: «رسالة مرآة العارفين، والواردات، وفلسفة التربية، والعلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار والتعليقات على شرح العقائد العضدية».

٣ ـ مقالات ورسائل اجتماعية وسياسية،معظمها حصيلة الإقامة فى مصر أو أوروبا، وصدر أغلبها فى صحف مصر وپاريس ولندن.

٤ ـ الرسائل والمكاتيب التى كتبت فى أية فترة وفى أى بلد، حسب قضايا الساعة والأوضاع الراهنة... معظم هذه الرسائل والمكاتيب ـ حتى إذا كانت ذات صفة شخصية ـ تشمل قضايا سياسية واجتماعية خاصة، ويمكن من خلالها مجتمعة، التوصل إلى أفكار السيد حول القضايا المطروحة.

و من خلال المصادر المتوافرة والمصادر الخطية فى مختلف البلدان، من إيران إلى تركيا ومن پاريس إلى اللندن والقاهرة، قد حاولت فى الخمسين سنة الماضية، تجميع وتنظيم أو ترجمة مجموعة متكاملة من مقالات وتأليفات السيد، وفى بعض الحالات قمت بدراستها،والآن ثم إعداد مجموعة من عشرة مجلدات تحت عنوان عام: «الآثار الكاملة» ـ أو مجموعة الآثار ـ للقيام بطبعها ونشرها.

هذه المجموعة تتضمن:

١ ـ العروة الوثقى ـ بالتعاون مع الشيخ محمد عبده.

٢ ـ رسائل فى الفلسفة والعرفان.

٣ ـ رسائل ووثائق السيد،السياسية والتاريخية.

٤ ـ ضياء الخافقين ـ بالتعاون مع آخرين.

٥ ـ تاريخ إيران الملخص وتتمة البيان فى تاريخ الأفغان.

٦ ـ رسائل ومقالات ـ باللغة الفارسية.

٧ ـ مجموعة المقالات ـ باللغة الفارسية.

٨ ـ خاطرات جمال الدين الأفغانى.

٩ ـ التعليقات على شرح العقائد العضدية.

٠١ ـ المستدركات ـ مقالات ومكاتيب لم تنشر من قبل.

و هنا نقدم عرضًا إجماليا حول هذه الآثار:

١ ـ العروة الوثقى:

«العروة الوثقى» كانت تصدر كمجلة من پاريس، صدر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ . ق ـ ١٣ مارس ١٨٨۴ م واستمرت حتى ذى الحجة ١٣٠١ هـ الموافق أكتوبر ١٨٨۴ م وبلغ مجموع ما صدر منها ١٨ عددًا.

صدرت هذه المجلة بأسلوب ثقافى وسياسى واجتماعى تحت إشراف السيد المباشر، وكان الشيخ محمد عبده «المحرر الأول» أو ما يسمى: «رئيس التحرير»! وتم إصدار المجموعة الكاملة لهذه المجلة عدة مرات،بواسطة أشخاص أو ناشرين متعددين فى العراق ولبنان ومصر وإيران وأوروپا،وقد تم طبعها فى أوروپا ـ روما وقبل عشرين سنة ـ مع مقدمتى المسهبة ـ وفى ۵١۶ صفحة من:«المركز الثقافى الإسلامى فى أوروپا» والذى أسسته حين إقاميتى فى إيطاليا ـ روما، ثم عاد طبعها، قبل سنوات، بمناسبة المؤتمر العالمى حول السيد فى طهران، من قبل وزارة الإرشاد ومجمع التقريب العالمى بين المذاهب الإسلامية.

وحول كيفية إعداد مواضيع «العروة الوثقى»نقل شكيب أرسلان عن الشيخ رشيد رضا بأن الشيخ محمد عبده كان يقول: «كافة الأفكار كانت من السيد، ولكن التحرير كان على عاتقى» وقد نقل أحمد أمين هذا الرأى فى كتابه.

وقد أورد الناشر فى العدد الأول من المجلة، أهدافها الرئيسية بصورة تفصيلية ومن خلال قراءة افتتاحية هذا العدد،يمكن التعرف أكثر على نوعية فكر السيد السياسى.

٢ ـ رسائل فى الفلسفة والعرفان:

هذه المجموعة تشمل على ۶ رسائل فى الفلسفة والعرفان. يوجد من الرسالتين الأوليين نسختان خطيتان فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، تحت عنوان «مرآة العارفين» و«الواردات فى سر التجليات»، أما رسالة «القضاء والقدر»قد صدرت أولا فى «العروة الوثقى» ثم أعيدت طباعتها بشكل مستقل فى القاهرة. والرسالة الرابعة: «فلسفة التربية وصناعة الفلسفة»، هى عبارة عن محاضرات للسيد،قام بصياغتها الشيخ محمد عبده. أما رسالة «العلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار» صدرت فى صحيفة «الواقائع» فى مصر بعنوان مستعار: «بقلم أحد مفكرى العلوم العقلية» وتم تجميعها بواسطة السيد رشيد رضا.

والرسالة السادسة، رسالة «نيتشرية» ترجمت من الفارسية بواسطة الشيخ محمد عبده وبمساعدة أبى تراب عارف أفندى وطبعت مرات عديدة بشكل مستقل فى القاهرة وتحت عنوان «الرد على الدهريين».

حول الرسالتين الأوليين من المناسب أن نقدم إيضاحات أكثر:

مرآة العارفين فى ملتمس زين العابدين:

تم تأليف هذه الرسالة المكونة ٢٢ صفحة صغيرة بخط السيد بالذات فى سنة ١٢٨٣ هـ حيث كتب السيد فى آخرها: «كتبه عبد الله جمال الدين الأفغانى الكابلى فى بلدة قندهار فى يوم الأحد ٢ شهر ذى الحجة الحرام ١٢٨٣».

موضوع هذه الرسالة كما يبدو من عنوانها، بحث فلسفى ـ عرفانى صرف فى تفسير وتبيين مفاهيم سورة الفاتحة وبسم الله. هذا الرسالة كما ورد فى بدايتها، جاءت ردًا على طلب شخص يدعى «زين العابدين».

رسالة الواردات فى سر التجليات:

توجد النسخة الخطية لهذه الرسالة فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران بخط إبراهيم اللقانى، وفى ٥٣ صفحة صغيرة. هذه الرسالة الفلسفية، هى محاضرات للسيد قام بصياغتها الشيخ محمد عبده.

ويذكر محمد عبده فى مقدمه المقتضبة: «عندما كنت أتابع بشغف وشوق العلوم الحقيقة، كان البعض يقول: لا تتناول هذه الأمور; لأنها حرام. وفجأة بزغت شمس الحقيقة وأوضحت التفاصيل الدقيقة للحقيقة، وكان هو حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الأفغانى الذى استجاب لطلبى، وكان ذلک فى عام ١٢٩٠ هـ وأورد هنا مختصراً عنه...»!

وقد قام السيد رشيد رضا بنقل هذا البحث فى الطبعة الأولى لكتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» بتاريخ ١٣٢٢ هـ ولكن فى الطبعة الثانية منه،الصادرة فى عام ١٣٤٤ هـ حذف هذه الرسالة وكتب فى الهامش: «وقد حذفنا منها رسالة الواردات لقلة من يفهمها!»... إلا أننا بالإشارة إلى الآية الكريمة: «وقليل من عبادى الشكور»، نقوم بطباعة هذه الرسالة مرة أخرى، فى هذه المجموعة، على أمل أن تلقى اهتماما عند أهل العلم والفلسفة...

٣ ـ التعليقات على شرح العقائد العضدية:

«العقائد العضدية» تأليف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، عضد الدين الإيجى المتوفى ـ فى عام ٧٥۶ هـ من علماء الكلام الكبار وكتاب «المواقف» من مؤلفاته أيضًا، وقد قام جلال الدين الدوانى وهو من العلماء المشهورين فى الفلسفة والكلام، بكتابة شرح لهذا الكتاب، الذى يعتبر من الكتب المهمة فى العلوم الربانية لدى إخواننا أهل السنة.

وكتاب «التعليقات» القيم صدر فى مصر مرة أو مرتين باسم الشيخ محمد عبده، وتاريخ تحريره حسبما جاء فى الكتاب هو سنة ١٢٩٢ هـ أى عندما كان السيد يقيم فى مصر ويدرس الفلسفة، فى حين أننا نعلم جميعًا أن الشيخ محمد عبده فى ذلک التاريخ بالذات، كان لا يزال طالبًا شابًا فى الأزهر ومن تلامذة السيد الممتازين، ولا يعقل أن يقوم طالب فى سن الثانية والعشرين من عمره بتأليف كتاب معتمد ومهم على هذا المستوى العلمى.

ويذكر محمد عبده نفسه كما ورد فى المجلد الأول من «تاريخ الأستاذ الإمام»، بأنه: «تعلم الإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق وعقائد جلال الدين الدوانى عند السيد....» وهكذا، فإنه يصرح بأن علاقته بهذا الكتاب ستكون فى مستوى تلميذ يتعلم عند السيد ولا يبدو من المعقول أن تكون هذا التعليقات من الشيخ نفسه.

واللافت للنظر، أنه فى بعض الحالات قام الشيخ محمد عبده وبتوقيع منه، بكتابة هوامش على نص «التعليقات» وهذا من المستبعد، أن يقوم المؤلف مرة أخرى و بتوقيعه الخاص، بكتابة هوامش على تعليقاته!.

والأهم من كل ذلک، أنه يقول فی التعليق رقم ۴۸ لدی البحث حول الإلهام الإلهی: «هذه القضيۀ تحتاج إلی تفصيل ونحن تناولناه فی رسالتنا حول مسألۀ الواردات.....» وطبعًا نعلم أن رسالۀ الواردات هی من السيد جمال الدين الحسينی، وقام الشيخ محمد عبده بصياغتها، كما صرح بذلک فی مقدمتها.

و مما يدعو إلی مزيد من اليقين، هو استخدام الكلمات والتعابير التركيۀ والفارسيۀ والهنديۀ والفرنسيۀ والإنجليزيۀ فی أماكن عديدۀ من الكتاب، ونحن نعلم بأن الشيخ محمد عبده لم يكن يعرف فی تاريخ تأليف الكتاب، أی من هذه اللغات، بل إن أستاذه جمال الدين الحسينی، هو الذی كان يعرف هذه اللغات.

وعلی سبيل المثال لا الحصر، جاء فی الكتاب: «الوجود، المعبر عنه فی الفارسيۀ بـ هستی! والعالِم ما يعبر عنه فی الفارسيۀ بـ دانا والله فی الفرانسويۀ ديو، وايزد ويزدان فی الفارسيۀ وخود آينده معناها الوجود بذاته. خود بالفارسيۀ: النفس وآينده اسم فاعل من آمدن، يعنی المجیء...».

و طبعًا فالشيخ محمد عبده نفسه، لم يكن علی علم بأن الكتاب سيصدر باسمه فحسب; لأن الطبعۀ الأولی للكتاب صدرت فی عام ۱۳۲۳ هـ أی بعد وفاته ولو كانت صدرت إبان حياته لا شک أنه وكما هی عادته، لم يكن يسمح بنشر الكتاب بدون اسم أستاذه.

ومن المناسب أن نشير إلی أن تعليقات السيد علی شرح العقائد العضديۀ توقفت فی الرقم ۲۲۲، وإذا انتبهنا إلی القضايا المطروحۀ بعد هذا العدد نجد أنها تتعلق بالقضايا الفلسفيۀ العميقۀ والأبحاث الاعتقاديۀ المتنوعۀ والمختلفۀ،كالمعاد الروحانی وقضيۀ الصراط والميزان والخلود فی الجنۀ أو النار ثم قضيۀ العصمۀ والإمامۀ بعد النبی ((صلی الله عليه وآله)) يتضح جليًا لماذا اختتم السيد بحثه؟

أی بعد طرح قضيۀ المعاد الجسمانی، ينهی السيد فجأۀ تعليقاته بهذه الفقرۀ:

«..إلی هنا انتهی بنا سير الفكر، فوقف القلم، والحمد لله حيث بالخير تمم..وكان ذلک فی أواخر ذی الحجۀ الحرام، سنۀ اثنتين وتسعين ومائتين وألف من الهجرۀ المحمديۀ، صلی الله وسلم علی مفتتح تاريخها وعلی آله وأصحابه».

فی الحقيقۀ، ينبغی القول إن أستاذنا الشيخ، نعنی السيد جمال الدين، توقف عن الاستمرار فی البحث تجنبًا من الخوض فی قضايا خلافيۀ، وبالأخص قضيۀ الخلافۀ والإمامۀ،وإلا فإن الخوض فی قضايا كهذه بالنسبۀ للشيخ محمد عبده وبالنظر إلی معتقداته، أمر سهل ويسير جداً وليس من المعقول أن يتوقف قلمه عنده!...

۴ ـ ضياء الخافقين:

أسست شهريۀ «ضياء الخافقين» التی صدرت بالعربيۀ والإنجليزيۀ فی لندن، إثر النفی الغادر الذی تعرض له السيد من قبل شاه إيران فی رجب ۱۳۰۹ هـ فبراير ۱۸۹۲ م. وكانت شركۀ صحفيۀ تجاريۀ بريطانيۀ، تدعی «كيلبرت» قد تولت إصدار المجلۀ من لندن، حيث كانت تمتلک مطبعۀ مستقلۀ مع إمكانيات الطباعۀ باللغات الشرقيۀ، والمجلۀ كانت تهاجم فی كل عدد شاه إيران وسياسته القمعيۀ ـ الاستبداديۀ....

لم يصدر من المجلة سوى خمسة أعداد، وحسب تعليق السيد حسن تقى زاده والأستاذ محيط طباطبائى ـ الباحثين الإيرانيين ـ فإن إصرار وطلب الحكومة الإيرانية أدى إلى قيام الحكومة البريطانية بممارسة الضغط على الناشر والمطبعة، للتوقف عن إصدارها.

فى هذه المجلة التى صدر القسم الإنجليزى منها فيما بعد بشكل مستقل، وردت مقالات بكل من اللغة التركية ولغة الأردو، من الأقليات المسلمة المقيمة فى بريطانيا.

ومع أن مشاركة السيد فيها واضحة بالكامل وصدرت العديد من المقالات فى المجلة بتوقيع صريح كالشيخ جمال الدين الأفغانى، جمال الدين، السيد، السيد الحسينى أو بتوقيع مستعار «كهف، قسط» أو «طالب علم»، إلا أن أشخاص آخرين من بريطانيين أو مواطنى بلدان الشرق الأخرى، لهم مقالات فيها، ومحتويات بعض هذه المقالات ومن بينها مقالة «الحق المر» والتى تدافع عن السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط! مما يظهر بوضوح أن كتّابها كانوا من الشركة الإنجليزية الناشرة للمجلة ـ والتى تريد التسويق فى الشرق الأوسط ـ أو أشخاص آخرين..

ولكن حتى هذا الدفاع عن السياسة البريطانية فى الظاهر، لم يتمكن من تجنب المجلة من الاحتجاب الإجبارى، حيث احتجبت المجلة وإلى الأبد بعد صدور خمسة أعداد منها.

طبعًا كما أشرنا وخلافًا لما كتبه بعض الباحثين المعاصرين، لم يصدر من هذه المجلة عددان فحسب، بل صدر منها ما مجموعة ٥ أعداد، ولم يكن للملكم خان أو أشخاص إيرانيين آخرين، أى تدخل فى إصدارها على الإطلاق.

٥ ـ مجمل تاريخ إيران وتاريخ الأفغان:

كما نعلم، فإن معظم أثار السيد هى «محاضرات» أو «تقريرات»، أى ما عدا بضع رسائل كرسالة النيتشرية وتاريخ الأفغان ومرآة العارفين وعدد من المقالات أو مكاتيبه السياسية، فى الحقيقة قام بتحرير وصياغة معظمها تلامذته وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده.

ومن أثار السيد التى هى صياغة لأقواله «مجمل تاريخ إيران» الذى وللأسف لم يهتم الباحثون به حتى الآن... حيث ألقى السيد بمحاضراته حول مجمل تاريخ إيران فى عام ١٣٠٣ هـ فى شيراز، وقام فرصة الدولة الشيرازى، بصياغتها وتقريرها.

ويذكر «سيد نصير الدين فرصة الدولة الشيرازى» فى مقدمة ديوانه: «دبستان الفرصة» الذى صدر للمرة الأولى فى الهند ثم فى إيران ما نصه: «فى إحدى الليالى اجتمع عدد من الأصدقاء ودار الحديث حول أصالة تاريخ إيران، وكانوا يستفسرون عن ذلك فأدلى سعادة السيد بإيضاحاته نورد هنا ملخصها»...

ثم يورد الشيرازى، بشكل موجز مجمل تاريخ إيران نقلا عن محاضرات السيد... ونحن نقوم بحول الله بإصدار هذا النص فى مجلد واحد، مع تاريخ الأفغان، الذى ألفه هو بنفسه ويحتفظ بقسم من مخطوطه فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران (و الكتاب طبع لأول مرة فى القاهرة، قبل قرن).

...وأما تاريخ الأفغان:

صدر «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» فى عام ١٩٠١ م بشكل كتاب مستقل، وقد جاء على غلافه:«اعتنى بتصحيحه وطبعه على نفقته، على يوسف الكريدلى، صاحب و محرر جريدة العلم العثمانى». ويورد الكريدلى فى مقدمة هذا الكتاب شرحًا بقلمه حول الأمير عبد الرحمن خان مشيدًا به، ثم يقول: «إن علاقتنا مع الشعب الأفغانى المسلم الذى يقدر عدد نفوسه بستة ملايين علاقة دينية، وكان ولا يزال هذا الشعب ذا فضائل على الأمة المحمدية، ولكن للأسف لم يكن فى متناول اليد تاريخ واضح عن هذا الشعب، إلى أن عثرت على كتاب قيم جدًا فى هذا الموضوع، تحت عنوان «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» وهو من تأليف: مهبط أسرار الحكمة وفيلسوف الإسلام والمسلمين السيد جمال الدين الأفغانى الشهير ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فقررت طباعته ولكى يكون تحت تصرف عامة الناس خدمة للثقافة والعلوم وإظهارًا لفضائل الأمة الإسلامية العظيمة، وتخليدًا لاسم المؤلف الجليل ـ أسكنه الله فراديس الجنان بالفضل والرحمة...» ويوضح الكريدلى فى مقدمته بأنه حصل على نسخة من كتاب السيد صدرت سابقًا لمرة واحدة، إلا أن نسخها أصبحت نادرة أو نافدة.

علاوة على مقدمة الناشر للطبعة الثانية للكتاب، اهتم السيد محمد رشيد رضا بجمع وإصدار ونشر آثار السيد ومقالات أستاذه ـ الشيخ محمد عبده وجمال الدين ـ وإذ وعد فى العدد ٣٨ من صحيفة «مصر» بتاريخ ٩ يناير ١٨٧٩ م، الصفحة ٣ بإصدار كتاب السيد حول تاريخ الأفغان كتب يقول: «الكتاب يضم تاريخ وأحوال الأفغانيين، و قد وصلنا هذا البحث فى عدة أجزاء تشمل المقدمة وعدة فصول تشكل بمجموعها كتابًا، وبدأنا حاليًا إصداره بشكل مستقل، ونأمل أن يصدر قريبًا بشكل جميل وفى حوالى مائة صفحة».

هذا النبأ يظهر بوضوح أن الكتاب صدر فى مصر إبان حياة السيد وفى أيام إقامته فى مصر، ثم أصبحت نسخه نادرة تدريجيًا، والنسخة التى حصل عليها الكريدلى أعيد إصدارها فى القاهرة مع حذف مقالة أو مقالتين، التى هاجم فيها السيد بشدة، سياسة بريطانيا الاستعمارية فى أفغانستان[1].

و كما أشرنا، توجد فى مجموعة آثار ووثائق السيد التى يحتفظ بها فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، صفحات من هذا الكتاب بخط السيد نفسه ونسخة من الطبعة الأولى والتى فقدت منها للأسف الصفحات الأولى، وتم مؤخرًا إعادة إصدار الكتاب فى مصر ولبنان، والنسخة التى نقوم بطباعتها تشمل القسم المحذوف، تحت عنوان: «البيان فى الإنجليز والأفغان» والتى لم تصدر فى الطبعات اللاحقة.

٦ ـ الرسائل والمقالات:

هذه المجموعة التى تم إعدادها فى أكثر من ٢٠٠ صفحة، تشتمل على ٢٢ مقالة ورسالة للسيد باللغة العربية، قام بكتابتها السيد شخصيًا أو ترجمت مؤخرًا من اللغات الأخرى إلى العربية، منها على سبيل المثال:

---

١. سلسلة الأعمال المجهولة، جمال الدين الأفغانى، تحقيق دكتور على شلش، طبع لندن، ١٩٨٦ م ص ١٤١.

رسالة حول المهدية، الشرق والشرقيين، الرد على رينان و..... وبعض هذه المقالات صدرت فى السنوات الأخيرة فى مجلة «اليوم السابع» طبع پاريس ومجلة «أوراق» و«العالم» طبع لندن وغيرهما...

وترجمت بعض هذه الرسائل بواسطة كاتب هذه السطور إلى الفارسية، كالرد على رينان أو رسالة القضاء والقدر، وتم إصدارهما مرارًا وبشكل مستقل، تحت عنوان «إسلام وعلم ورسالة قضاء وقدر» فى إيران، مدينة تبريز وقم وطهران....

٧ ـ مقالات السيد بالفارسية:

مجموعة المقالات والرسائل الفارسية تضم أكثر من ثلاثين رسالة ومقالة كتب السيد شخصيًا قسمًا منها وحاضر بقسم آخر منها، وتولى محمد حسن آقا أمين الضرب الثانى كتابتها بخطه... قسم من هذه المقالات الفارسية هى نفسها التى صدرت تحت عنوان (المقالات الجمالية) وصدر قسم آخر منها سابقاً كرسالة النيتشرية أو (قصص الأستاذ) بشكل مستقل أو فى الصحف والمجلات الإيرانية والهندية، وقد قمنا بجمعها كاملة وبعد بحثها ودراستها، وضعناها اليوم تحت تصرف الراغبين[٢].

و من الضرورى أن نوضح أن (قصص الأستاذ) الذى تم نقلها فى هذه المجموعة قد صدرت لأول مرة بواسطة المرحوم أبى الفضل قاسمى ـ قبل أربعين سنة ـ ويحتفظ بنسختها الخطية ضمن وثائق السيد فى مجلس الشورى الإسلامى، إلا أن أيًا من هذه القصص ليست بخط السيد نفسه، ويبدو أن السيد قد سردها فى أوقات الفراغ، وكنوع من الممارسة الفكرية وكان أحد تلامذته يقوم بتقريرها؟!.. من الضرورى أن نشير إلى أن محتويات إحدى هذه القصص، لا تتفق مع بعض أفكار وتوجهات السيد العامة، وعلى أية حال فقد أوردنا هذه القصص أيضاً فى هذه المجموعة.

٨ ـ رسائل ووثائق السيد السياسية ـ التاريخية:

---

٢. صدرت الطبعة الفارسية من مقالات السيد جمال الدين تحت عنوان «مقالات جمالية» فى كالكتا بالهند عام ١٨٨٤ م وعلى غلافها جاء وصف السيد جمال الدين بأنه: «حبر فهامة، فيلسوف علامة، حضرة مولانا السيد جمال الدين الحسين الأفغانى المصرى المقيم بمدينة پاريس». وقام محمد عبد الغفور شهباز البهارى بوصف السيد جمال الدين الأفغانى بأنه: «أحد أجل علماء مصر وأعز فلاسفة العصر». وقد استخدم السيد جمال الدين بالذات العديد من الأسماء لتوقيع بعض رسائله منها: جمال الدين الحسينى وجمال الدين السعد آبادى وجمال الدين الأسد آبادى وجمال الدين الأفغانى وجمال الدين كايولى وجمال الدين الاستانبولى وجمال الدين الرومى وجمال الدين الطوسى و... ولا أرى داعيًا للنقاش حول مكان ولادة السيد، هل ولد فى أسد آباد بإيران أو السعد آباد فى أفغانستان؟! فما جدوى أن نبحث فى هويته فى حين حدد هو بالذات هويته، إذا اعتبر نفسه فى توقيعاته: مصريًا/ أفغانيًا/ استانبوليًا/ أسدآباديا/ روميًا وطوسيًا و... إذن، فهو ينتمى إلى الأمة الإسلامية جمعاء، وقد جسد هذا الانتماء فى دعواته وأطروحاته. وقد ورد فى كتاب «خاطرات» وهو تقرير عن آراء وأفكار السيد جمال الدين بقلم محمد مخزومى باشا بتاريخ ١٣١٠ هـ فى اسطنبول،أنه «مسلم» فقط، مما يقطع الطريق أمام المغرضين بنعته: شيعى أو سنى، إيرانى أو أفغانى؟، لتسميم الأجواء وإبعاد الباحثين عن حقيقة أفكاره.

ضمن الأوراق والوثائق المتبقية من السيد، يوجد العشرات من المكاتيب والرسائل من السيد والتى كتبت فى طهران وكرمانشاه وبغداد والبصرة وبطر سبورغ وموسكو واسطنبول وپاريس ولندن الخ، معظمها ذو مضمون سياسى أو نقدى.

وقد اخترت من هذه الرسائل والوثائق ٥٠ رسالة ووثيقة تاريخية للسيد، باللغات العربية والتركية والفارسية، وفى بعض الحالات قمت بترجمتها من التركية أو الإنجليزية وننشرها مع إيضاحات فى الهامش...

٩ ـ خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى:

و هذا الكتاب يشمل جزءًا من خواطر وأفكار السيد، جمال الدين الحسينى، والتى تم إعدادها فى اسطنبول فى عهد السلطان عبد الحميد العثمانى خلال الفترة ١٣١٠ وإلى ١٣١٤ هـ / ١٨٩٣ إلى ١٨٩٧ م ـ ولقد كان مقرر هذه الخواطر هو محمد المخزومى باشا، والذى كان يحضر يوميًا فى خدمة السيد جمال الدين طوال فترة إقامة فى اسطنبول وفى أوقات فراغه، كان يسجل الموضوعات التى يلقيها السيد، ثم يدونها بعينها، بدون إضافة أو نقصان!.

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى بيروت سنة ١٩٣١ م، أى قبل ٧٠ عامًا مضت... واليوم تظهر الطبعة الجديدة المنقحة، بعد اكتمال المراجعة والإصلاح اللازمين وتغيير بعض العناوين وإعداد فهارس الآيات والأعلام والأمكان و... نأمل بأن يحوز تجديد نشر هذا الجزء من تراث السيد جمال الدين الحسينى، اهتمام واستفادة أهل العلم والفضل.

١٠ ـ المستدركات: (مقالات ومكاتيب وهوامش لم تنشر من قبل)

بين أوراق، وأكثر من خمسمائة كتاب مطبوع ومخطوط تخص السيد ويحتفظ بها حاليًا فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، وفى معظم الكتب التى قام السيد بمطالعتها أو تدريسها ـ سواء الخطية منها أو المطبوعة ـ توجد هوامش وإيضاحات مسردة أو قصيرة من السيد، كتبها خلال فترة تدريسه فى مصر أو أثناء مطالعته فى القاهرة وكابول وطهران واسطنبول و... وطبعًا استخراج كافة تلك الهوامش وتبويبها ونشرها، يحتاج إلى أن نشمر عن سواعدنا فى فرصة أخرى وبعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينبغى أن نقوم بذلك فى يوم ما!.

نشير من جملة هذه الكتب إلى: مطول التفتازانى طبع طهران، فرائد الأصول للشيخ الأنصارى طبع تبريز، خلاصة الحساب للشيخ البهائى وهيأت قوشجى طبع طهران، حاشية سيد على على شرح الشمسية، شرح جامى، شرح جغمينى، أخلاق ناصرى لنصير الطوسى، إشارات ابن سينا طبع طهران و... حيث للسيد تعليقات مقتضبة لهذا الكتاب، وقد كتب فى آخرها أنه كان يدرسها فى مصر عام ١٢٩١ هـ

... سيتم إن شاءالله تنظيم هذه المجموعة من الهوامش العلمية والفلسفية، مع مكتوبات ومقالات قصيرة أخرى متبقية من السيد تحت عنوان «المستدركات» أو «آثار وتأليفات لم تنشر بعد» وستصدر كآخر مجلد من مجموعة آثار السيد الحسينى ـ رحمه الله ـ

وفی دفاتر المذکرات المتبقیة من مجموعة وثائق السید، ترک لنا السید مواضیع متنوعة وقصائد ورباعیات والمثنوی والغزل، مما یدل علی ذوقه الرفیع فی عالم الشعر والأدب، وسنقوم بجمعها وإصدارها فی آخر مجلد من المجموعة بإذن الله.

***

... لقد قمت مباشرة ـ ومنذ نصف قرن ـ وعلی قدر الإمکان الفردی، بجمع وتنظیم ودراسة هذه الآثار ـ فی أسفاری المتعددة ـ وفی کل من: إیران، مصر، لبنان، العراق، إیطالیا، انکلترا، فرنسا، ترکیا، پاکستان، وأفغانستان... وکنت آمل أن أقدمها کافة إلی «المؤتمر الدولی حول السید جمال الدین الأسدآبادی» ـ حیث کانت معدة للنشر ـ وأهدیها إلی العدد الکبیر من أصدقاء ومحبی السید، خاصة أساتذة الحوزات العلمیة والجامعات الأفاضل والضیوف الوافدین من البلاد الإسلامیة، ولکن للأسف وفی اللحظات الأخیرة حالت البیروقراطیة السائدة فی بعض الدوائر الحکومیة دون تحقیق هذه النیة الخیرة!.. علی أمل أن نتمکن من التعویض عن هذا النقص فی المستقبل بنحو آخر...

ثم قمنا بنشر ۷ مجلدات من هذه المجموعة، من قم، مرکز البحوث الإسلامیة والذی أسسته وأدیره، والیوم نقوم بنشرها کاملة، ومن أرض الکنانة،«**قاهرة**»المعز... مع الشکر والتقدیر للأخ الأستاذ المهندس «**عادل المعلم**» صاحب «**مکتبة الشروق الدولیة**» حیث قام بإصدار هذه المجموعة الثقافیة والعلمیة، وبهذه الصورة الممتازة... وفقه الله وإیانا لما یحب ویرضی.

... وفی الختام، من الضروری أن أشیر إلی أننی أری أنّه إذا أقام العلماء الباحثون بإلقاء نظرة خاصة فی کافة آثار السید الفکریة، وبالأخص الآثار التی لم تکن فی متناول أیدیهم حتی الآن، سوف تنضح لهم الأبعاد المتعددة لشخصیة السید الفکریة والعلمیة، بشکل أکثر وضوحًا وجلاءً.

مثلا إن الأستاذ الشهید آیة الله الشیخ مرتضی مطهری، بعد أن علم بأن السید کان فی العلوم العقلیة والفلسفیة، من تلامذة «آخوند ملا حسین قلی همدانی درجزینی شوندی» الفیلسوف والعارف الکبیر فی حوزة النجف، وکان صدیقًا وزمیلا لحکیم وعارف آخر، هو المرحوم آغا سید أحمد طهرانی کربلائی، والسید سعید الحبوبی الشاعر والأدیب والعارف والمجاهد العراقی الکبیر[۳]، کتب یقول: «إننی منذ أن علمت بهذا الأمر عن حیاة السید، أصبحت شخصیته فی نظری ذات بعد آخر و أهمیة أخری».

وأعتقد، لو أن الشهید مطهری کان قد اطلع علی الآثار الفلسفیة والعرفانیة الأخری للسید والتی تنشر الیوم، لتضاعفت محبته ولتبنی أفکاره أکثر فأکثر...

---

۳. کما جاء فی إحدی الوثائق التاریخیة الموجودة بین أوراق السید نفسه، والمحفوظة فی مکتبة مجلس الشوری الإسلامی بطهران..

والآن فمن واجبنا أن نحاول تقديم وتعريف هذه الشخصيۀ الإسلاميۀ البارزۀ والمجهولۀ والمظلومۀ، وأن نقوم بنشر أفكاره العاليۀ البنّاءۀ; لكى نجعل الجيل الحالى والمستقبلى، أكثر وعيًا واستعداد للإفادۀ من أفكاره وآثاره...

والسلام عليكم ورحمۀ الله وبركاته.

سيد هادى خسروشاهى

القاهرۀ: رمضان ۱۴۲۲ هـ

تقديم

لمجموعة الآثار الجديدة

الدكتور محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى منتصف خمسينيات القرن العشرين ـ وأنا طالب بكلية دار العلوم.. جامعة القاهرة ـ بدأت علاقتى الفكرية بجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٢١٤ هجرية ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م)، فلقد درسنا كتاب أستاذنا الدكتور محمود قاسم (جمال الدين الأفغانى، حياته وفلسفته)[٤].. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلميذًا فى مدرسة الإحياء والتجديد ـ الدينى والحضارى ـ تلك التى تبلورت من حول هذا الرائد العظيم، الذى تجسدت فيه ـ بحق ـ صفات: موقظ الشرق.. وفيلسوف الإسلام..

وعندما تفرغت للعمل الفكرى، وعزمت على الإسهام فى توجيه عقل الأمة إلى معالم المشروع الحضارى النهضوى، التى صاغها رواد اليقظة والإصلاح فى عصرنا الحديث، كان الجمع والتحقيق والدراسة والنشر للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى طليعة السلسلة التى أنجزتها ـ منذ منتصف ستينيات القرن العشرين ـ والتى ضمت ـ بعد أعمال الأفغانى ـ أعمال محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣ هجرية ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٦ م) ورفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هجرية ـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) وعبدالرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هجرية ـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م) وعلى مبارك (١٢٣٩ ـ ١٣١١ هجرية ـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣ م) وقاسم أمين (١٢٨٠ ـ ١٣٢٦ هجرية ـ ١٨٦٣ ـ ١٩٠٨ م).. وكتبًا وفصولا ودراسات وتحقيقات عن عبدالله النديم (١٢٦١ ـ ١٣١٤ هجرية ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م) والخضر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧ هجرية ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨ م) ورشيد رضا(١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هجرية ـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٩ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هجرية ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م) وحسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هجرية ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) وسيد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ هجرية ـ ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م) ومحمود شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣ هجرية (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣ م) وعبد الرزاق السنهورى (١٣١٣ ـ ١٣٩١ هجرية ـ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١ م) وعلى الخفيف (١٣٠٨ ـ ١٣٩٨ هجرية ـ ١٨٩١ ـ ١٩٧٨ م) وأمين الخولى ـ١٣١٣ ـ ١٣٨٥ هجرية ـ ١٨٩٥ ـ ١٩٦٦ م) ومحمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦ ـ ١٣٩٣ هجرية ـ ١٨٧٩ ـ ١٩٧٣ م) ومحمد الغزالى (١٣٣٥ ـ ١٤١٦ هجرية ـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦ م)، وغيرهم من أعلام العلماء الذين ساروا على النهج الإصلاحى والنهوضى الذى بلور معالمه جمال الدين الأفغانى.

وبقدر ما كنت أسعد عندما أرى عطاء هذه المدرسة الإحيائية التجديدية وقد عاد للفعل والتأثير ـ بواسطة هذه الأعمال الكاملة ـ فى فكر الأمة وعقلها، عبر رسائل الماچستير والدكتوراه، والأعمال الفكرية المتخصصة والجمهورية.. كانت سعادتى غامرة عندما وجدت أعمال جمال الدين الأفغانى قد حظيت باهتمام عالم كبير من علماء الحوزة العلمية بإيران الشقيقة، هو السيد هادى خسرو شاهى، الذى جمعتنى و إياه المحبة والتقدير لسيرة وجهاد وفكر جمال الدين منذ سنوات طوال..

---

٤. طبعة القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٦ م.

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب على العقل المسلم المعاصر، ولا على مكانة جمال الدين.

ـ فجمال الدين الأفغانى هو واحد من أئمة الإسلام الذين تنازعتهم كل أوطان وأقاليم عالم الإسلام، لأنهم عاشوا وجاهدوا فى سبيل (دار الإسلام) ـ كل دار الإسالم ـ فكانوا أكبر من المعانى الضيقة للوطن والإقليم.

ـ وهو واحد من أئمة الإسلام، الذين ارتفع بهم الاجتهاد، والإيمان بوحدة الأمة، والوعى بالتحديات الشرسة التى تهدد وجودها، عن ضيق المذهبية وأغلال التعصب المذهبى، فتنازعت شرف انتسابه إليها كل مذاهب الأمة، بينما ظل هو العقل الجامع لعناصر الوحدة الإسلامية، والطاقة الخلاقة ليقظة الشرق، كل الشرق، بكل ما فيه من ملل ونحل ومذاهب وأقوام.. حتى أنى لا أرى له نظيراً ـ فى هذا الميدان ـ بتراثنا الحضارى ـ إلا الإمام الحسن البصرى (٢١ ـ ١١٠ هجرية ـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) الذى تتلمذ عليه كل أئمة عصره، وخرجت من تحت عباءته كل مدارس ومذاهب وتيارات وثورات ذلك العصر، وازدانت باسمه وبترجمته كل كتب الطبقات التى ترجمت لأئمة كل المذاهب والتيارات!

هكذا كان جمال الدين الأفغانى الذى شرفت وتشرف به كل أقاليم عالم الإسلام.. وشرفت وتشرف به كل مذاهب أمة الإسلام.. والذى أيقظ الشرق، وترك بصماته الفكرية بكل ميادين الإحياء والتجديد لهذه الأمة،منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر الميلادى وحتى وقتنا الراهن.

ـ وإذا كان ما كتبه جمال الدين عن تاريخ بلاد الأفغان ـ (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) ـ هو أقدم ما حفظ لنا التاريخ من تراثه الفكرى.. وإذا كانت أماليه على محمد باشا المخزومى (١٢٨٥ ـ ١٣٤٨ هجرية ١٨٦٨ ـ ١٩٣٠ م) ـ (خاطرات جمال الدين الأفغانى) ـ هى آخر أماليه ـ فى الأستانة ـ حيث انتهى به العمر والمطاف.. فإن إبداعه الفكرى وجهاده العملى قد غطى سائر بلاد وعواصم عالم الإسلام.. من الهند.. إلى مصر... إلى إيران.. إلى العرق.. إلى الأستانة.. إلى روسيا.. إلى الحجاز.. إلى أفغانستان.. إلى السودان.. وحتى لندن.. وپاريس..

ولهذه العالمية ـ التى جسدت عالمية الإسلام ـ أجاد جمال الدين من اللغات، غير العربية والفارسية والأفغانية، التركية، والفرنسية، مع إلمامه بالإنجليزية والروسية.

ومع هذه العالمية، كانت السنوات العشر التى عاشها جمال الدين بمصر (١٢٨٨ ـ ١٢٩٦ هجرية ١٨٧١ ـ ١٨٧٩ م) هى أخصب السنوات فى تاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية.. فيها ربى نخبة من العقول التى جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين، وفى مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ وشرح من كتب الفلسفة والكلام والمنطق والعرفان ما أعاد للحياة الفكرية قسمة العقلانية الممزوجة باللطائف القلبية والواجدانية، تلك التى غابت عن الثقافة الإسلامية منذ عصر التراجع الحضارى للمسلمين.. ونشأت على يديه مدرسة فى الصحافة الأهلية الحرة ـ غير الحكومية ـ وتيار شعبى لمعارضة الاستبداد الداخلى، وللثورة على النفوذ الأجنبى ـ الاقتصادى والسياسى والعسكرى والفكرى ـ الزاحف على ديار الإسلام.. وكانت له ـ وهو الذى بلغ الذروة فى البلاغة العربية ـ ريادة تجديد أساليب التعبير والتحرير للعربية ـ لسان الإسلام والقرآن ـ وتحريرها من

ركاكة وسجع عصر الانحطاط.. بل لقد عرفت مصر والشرق على يديه وبقيادته، طلائع التنظيمات السياسية ـ (الحزب الوطنى الحر) ـ فى تلك الفترة المبكرة من حياة ونشأة الأحزاب والجمعيات والتنظيمات.

ـ وإذا كانت قوى الاستعمار الأوروبى وفى مقدمتها الاستعمار الإنجليزى ـ ومعها قوى الاستبداد الداخلى: ودوائر التقليد والجمود الفكرى، قد حولت حياة جمال الدين الأفغانى إلى سلسلة متصلة من (النفى).. و(تحديد الإقامة).. و(رقابة الجواسيس).. و(التآمر).. و(التشريد).. فلقد حول الرجل هذه التحديات إلى إيجابيات، فكانت سياحاته عبر أوطان العالم الإسلامى، بل وفى المنافى خارج عالم الإسلام، فتوحات فكرية وثورية، جعلت كل سنوات حياته طاقات إيقاظ واستنارة وتحويل لشعوب الشرق وأمة الإسلام.. فمن منفاه ـ فى باريس ـ ومن غرفة شديدة التواضع، فوق سطح أحد المنازل، أصدر ـ مع الشيخ محمد عبده ـ جريدة «العروة الوثقى»، لسان حال لجمعية «العروة الوثقى» ـ السرية ـ التى غطت (عقودها ـ خلاياها) أغلب بلاد الإسلام، والتى استقطبت صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين.. فكانت هذه المجلة ـ التى عالجها الاستعمار بالمصادرة والتضييق بعد سبعة أشهر ـ (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هجرية ـ ٢٦ ذى الحجة ١٣٠١ هجرية ـ ١٣ مارس ١٨٨٤ م ـ ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م) ـ صدر فيها ثمانية عشر عددًا.. كانت أهم مدارس الوطنية الإسلامية والبعث الحضارى الإسلامى، التى تربى فيها وتعلم منها واستضاء بمنهاجها دعاة اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد عالم الإسلام.. بل وظلت ـ حتى بعد توقفها ـ تنسخ أعدادها ومقالاتها.. وتعاد طباعتها، كدليل عمل لتيار اليقظة والإحياء والتجديد.. حتى ليحدثنا الشيخ محمد رشيد رضا عن دور مقالات العروة الوثقى فى الانقلاب الفكرى الذى حدث له، فيقول:

«ثم إنى رأيت فى محفوظات والدى بعض نسخ (العروة الوثقى)، فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور إلى طور ومن حال إلى حال.. كان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية، ويليه تأثير المقالات السياسية فى المسألة المصرية.. والذى علمته من نفسى ومن غيرى ومن التاريخ، أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرن قبله ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل ولا حد للبلاغة إلا هذا.. لقد تعلمت ـ من (العروة الوثقى) ـ أن الإسلام ليس روحيًا أخرويًا فقط، بل هو دين روحانى جسمانى، أخروى دنيوى، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة العدل.. ولقد أحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيًا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين، فقد كان همى قبل ذلك محصورًا فى تصحيح عقائد المسلمين، نهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم فى الدنيا.. فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات، وجميع مقومات الحياة، فطفقت أستعد لذلك استعدادًا..».[٥]

---

٥. (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ ١ ص ٩٩٦، ٣٠٣، ٨٤ ـ ٨٧، طبعة القاهرة، ١٩٣١ م.

فإذا علمنا أن هذا (المس الكهربائى) الذى أيقظت به مقالات العروة الوثقى عقل ووجدان وعزيمة رشيد رضا، قد جعل من الرجل ـ عبر مجلة (المنار) ـ ترجمان هذا الفكر، ورسول هذه اليقظة على امتداد العالم الإسلامى، لنحو من أربعين عامًا ـ (شوال ١٣١٥ جمادى الأولى ١٣٦٥ هجرية ـ مارسى ١٨٩٨ ـ أبريل ١٩٣٥ م).. وأن (المنار) المجلة والمدرسة، التى أحيت (العروة الوثقى) ـ قد كانت (الرحم) الذى ولدت منه كل جماعات وتنظيمات اليقظة الإسلامية على امتداد عقود القرن العشرين.. أدركنا معنى الريادة والقيادة لجمال الدين الأفغانى فى إيقاظ الشرق، وإمامة الصحوة الإسلامية، التى غدت الآن أعظم ظواهر العصر الذى نعيش فيه..

وإذا كانت ريادة مصر لتيار اليقظة الإسلامية وثورات التحرر الوطنى، على امتداد عالم الإسلام، هى حقيقة من حقائق تاريخ الشرق، الحديث والمعاصر، فإن دور جمال الدين الأفغانى وأستاذيته فى هذا (الدور المصرى) تشير إليها وتفصح عنها عبارات تلميذه، وأقرب الناس إليه وأخبرهم به، الشيخ محمد عبده، التى يقول فيها:

«مال السيد جمال الدين إلى مصر.. فاهتدى إليه كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درًا، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالمية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية، طبيعية وعقلية، وفى علم الهيئة الفلكية، وعلم التصوف، وعلم أصول الفقه الإسلامى.

و كانت مدرسته بيته، من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم، ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا ولا يومًا واحدًا، نعم كان يذهب إليه زائرًا، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة.

عظم أمره فى نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته فى الديار المصرية.

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر، وحمل تلاميذه على العمل فى الكتابه وإنشاء الفصول الأدبية والحكميّة والدينية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا، وتقدم فن الكتابة بسعيه، وكان أرباب لقلم فى الديار المصرية، القادرون على الإجادة فى الموضوعات المختلفة، منحصرين فى عدد قليل، وما كنا نعرف منهم إلا عبدالله باشا فكرى، وخيرى باشا، ومحمد باشا سيد أحمد ـ على ضعف فيه ـ ومصطفى باشا وهبى ـ على اختصاص فيه ـ ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها.

ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه، أو قلد المتصلين به. ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر»[٦].

---

٦. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٢ ص ٣٤٢، ٣٤١، طبعة القاهرة ـ دار الشروق ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.

ـ ومن لندن ـ عاصمة الاستعمار الإنجليزى ـ الذى طارد جمال الدين.. والذى حاربه جمال الدين ـ بالفكر وبالسلاح! ـ سطعت شموس أفكار جمال الدين على صفحات جريدة (ضياء الخافقين) (١٣٧٩ هـ ـ ١٨٩٢ م) فكانت مقالاته ـ بأعدادها الخمسة الأولى ـ الامتداد لمنهجية ومقالات (العروة الوثقى).

***

وإذا كان جمال الدين الأفغانى قد وهب حياته وطاقاته وملكاته لإيقاظ الأمة، كى تحرر وطنها من الاستعمار.. ودولها من الاستداد.. وفكرها من الخرافة والجمود والتقليد ـ تقليد عصر التراجع والانحطاط.. وتقليد النموذج الغربى الوضعى اللادينى ـ فإن كتاباته وأماليه قد مثلث ـ ولا تزال ـ الأسس والمنطلقات للمشروع الإسلامى لإنهاض الشرق بالإسلام، وتجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين.

ـ ففى مواجهة الاستلاب الحضارى، والتغريب للثقافة ومشروع النهضة.. دعا الأفغانى إلى إسلامية المشروع النهضوى، وإلى الإصلاح بالإسلام، لأن استقلال الهوية والفكر والثقافة هو الشرط الأول لاستقلال الوطن والأمة..بينما التقليد للنموذج الغربى هو طريق التبعية التى تؤيد وتؤبد الاستعمار.. فكتب عن إسلامية مشروع النهضة والإصلاح يقول:

«إن الذين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. إنه سلك النظام الاجتماعى، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الذين البتة.. وإنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآننافلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق.و إن ما تراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقى والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط، لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الأعجاب بالإجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلک تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى.

وإن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلک العلوم التى ينقلونها.. والتمدن الغربى هو، فى الحقيقة، تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطائع الجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

و إن الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسک ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوک المسالک التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوروپى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلک، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وقراً[٧] أعجزها وأعوزها.

---

٧. الوقر: الثقل.

إننى أرسل فكرى إلى نشأة الأمة التى خملت بعد نباهة.. وأطلب أسباب نهوضها الأول.. إنه: دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان فى مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية..

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا، ففلاحها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته.

ومن يعجب من قولى ـ إن الأصول الدينية الحقة تنشىء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة. وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية ـ فإن عجبى من عجبه أشد.. ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت العالم.

ولا سبيل لليأس والقنوط من العودة إلى هذا الطريق، فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى.

ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا.. ولن يزيدها إلا نحسًا، ولن يكسبها إلا تعسًا..».

هكذا أعلن جمال الدين الأفغانى أن سبيل الإصلاح فى هذه الأمة هو الإسلام.. وأنه هو طريق التغيير، ونموذج التقدم والنهوض.. وأن استعارة النموذج الغربى فى التمدن والنهوض، هو طريق التبعية وتأييد العبودية لمركزية الغربيين الغزاة.. وأن المقلدين للنموذج الغربى هم عملاء الحضارة الغربية الذين لا يلبثون أن يفتحوا للغزاة الأبواب ثم يثبتون لهم الأقدام.

قال الأفغانى ذلك قبل أكثر من مائة عام.. وصدقت تجاربنا مع التغريب والمتغربين على هذا الذى قال!

***

وإذا كان التنوير الغربى ـ الوضعى العلمانى واللادينى ـ قد أقام ـ باعتراف أهله ـ قطيعة معرفية مع الموروث الدينى، وذلك عندما أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والكنيسة واللاهوت.. وأضفى الإطلاقية على القدرات العقلية، فرفع شعار: (لا سلطان على العقل إلا للعقل)، فأحل العقل الإنسانى محل الله، ذى العلم المطلق والكلى والمحيط.. واعتبر الدين مرحلة ناسبت طفولة العقل البشرى.. وفرّغ ـ بالتأويل ـ المصطلحات الدينية من مضامينها الدينية، فأنسن الدين، وفرغه من جوهره ومحتواه!.. وبنص عبارة هؤلاء (التنويريين ـ الغربيين):

«فبعد أن كان المسيحى حريصًا على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فأيديولوچية التنوير قد أقامت القطيعة (الإپستمولوچية) (المعرفية) الكبرى، التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس (توما الأكوينى)، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعدًا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياسًا للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعًا لحكم الوعى البشرى، الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر ولكنه لم يد يوهم أحدًا، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى!..»[٨].

إذا كان هذا هو صنيع التنوير الغربى ـ الوضع العلمانى ـ مع الدين، فإن جمال الدين الأفغانى قد أهال التراب على هذا التنوير اللادينى، ورآه دهرية تقف بالإنسان عند ظواهر الحياة الدنيا، (وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) [الروم: ٦،٧]، وحيوانية تجرد الإنسان من الروح التى نفخها الله فيه، وتقف به عند الجانب الطبيعى الحيوانى..! ومن ثم، فإن هذا التنوير الطبيعى اللادينى يفتح أمام الإنسان الأبواب الواسعة لغرائز اللذة والإباحية والقوة المفترسة والمروق والضلال..

كشف جمال الدين الأفغانى هذا الوجه القبيح لهذا التنوير اللادينى.. ثم تألقت شجاعته الجسورة عندما شن الهجوم على هذا التنوير، وعلى الثورة الفرنسية ـ التى كانت تجسيدًا لفلسفته ـ وذلك فى الوقت الذى كان فيه المتغربون ـ من الليبراليين واليساريين ـ يتعبدون فى محاريب الثورة الفرنسية وفلسفة الأنوار الغربية، ويوم أن كان جمهور المثقفين والساسة فى كل أرجاء الأرض يتحدثون بإعجاب تخالطه القداسة عن فلاسفة التنوير الغربى ـ من أمثال (قولتير) (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) و(روسو) (١٧١٢–١٧٧٨ م) ـ كتب جمال الدين عن هذين الفيلسوفين، وعن فلسفتهما يقول:

«لقد ظهر قولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول، فنبشا قبر (أبيقور) الكلبى[٩] (٣٤١–٢٧٠ ق.م) وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى،وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع عقيرته بالتشنيع على الأنبياء.. فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين.. فنبذوا الديانة العيسوية.. وفتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (فى زعمهم)، شريعة الطبيعة. ولقد بذل ناپوليون الأول جهده فى إعادة الديانة المسيحية إلى الشعب، استدراكًا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل!».

---

٨. إميل بولا.. (الحرية، العلمنة.. حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة) منشورات سيرف. پاريس ١٩٨٧ م نقلا عن: هاشم صالح ـ مجلة الوحدة ـ الرباط. عدد فبراير ـ مارس ٩٢ م. ص ٢٠، ٢١.

٩. أبيقور: فيلسوف يونانى،أنكر العناية الإلهية، وجعل السعادة الإنسانية فى اللذة.

فالإسلام هو الحل.. وهو سبيل الإصلاح.. وطريق التقدم والنهوض.. وليس هذا التنوير اللادينى، الذى عرفته الحضارة الغربية كرد فعل لاستبداد الكنيسة ولا عقلانية لاهوت نصرانيتها.

***

وفى مواجهة العقلانية اللادينية، التى دعا إليها التنوير الوضعى الغربى، ذلك الذى انطلق فلاسفته من دعوى الثنائية المتناقضة بين (العقل) و(النقل).. دعا الأفغانى إلى إحياء العقلانية الإسلامية المؤمنة، لأن الإسلام وحضارته لم يعرفا هذه الثنائية المتناقضة التى حكمت التنوير الغربى فى هذا الميدان..

فالنقل الإسلامى ـ القرآن الكريم ـ هو الذى يعلى من مقام العقل، ويحتكم إليه، ويجعله مناط التكليف.. بل إن هذا النقل الإسلامى هو، قبل كل شىء، معجزة عقلية، تحتكم إلى العقل، وليس معجزة مادية تدهش العقل وتشله عن التدبر والتفكير.. ثم إن المقابل (للعقل) ـ فى العربية والإسلام ـ ليس (النقل)، وإنما هو (الجنون).. فلا مكان لهذه الثنائية فى فكر الإسلام، ومن ثم فإن للإسلام عقلانية المؤمنة، التى تآخت مع الشرع، فتزاملا كسبيلين وهدايتين للإنسان، وهما، مع (التجربة) و(الوجدان) يمثلون الهدايات الأربع التى بشرها الله، سبحانه وتعالى، للإنسان، عند ما استخلفه لعمارة هذا الوجود..

دعا جمال الدين الأفغانى إلى إحياء هذه العقلانية الإسلامية المؤمنة، التى ترفض جمود الوقوف عند ظواهر النصوص، كما ترفض الغلو فى التأويل، ذلك الذى يفرغ الدين من الدين!.. ويقف بالإنسان عند ظواهر الحياة الدنيا.. وكتب عن هذه العقلانية فقال:

«فهذا الدين الإسلامى يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب العقل، وكلما حاكم إلى العقل، تنطلق نصوصه بأن السعادة من نتاج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. فالعقل مشرق الإيمان، ومن تحول عنه فقد دابر الإيمان، وإن هناك فرقا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من عتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده.

فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

إن أول ركن بنى عليه الدين الإسلامى: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفًا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستارا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجليه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع..

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس.. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.. وعقائد الأمة، وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها، يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون فى عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقدا لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا، فلا يكون مؤمنًا.. وأولئک المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلک تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاتفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقيلة بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم.

هذا هوالإسلام.. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة..».

***

وفى مواجهة نظام الإقطاع الزراعى، المنتشر فى ممالک الشرق.. وفى مواجهة الرأسمالية الغربية المتوحشة، الزاحفة على عالم الإسلام، تنهب الثروات، وتقتل الاقتصاد الوطنى، وتدعم الاحتلال العسكرى، الذى تحتمى به.. دعا جمال الدين الأفغانى إلى قسمة من قسمات المشروع النهضوى الإسلامى، وهى وسطية الإسلام فى العدل الاجتماعى.. وسطية الاشتراک فى الثروات والأموال، المؤسس على فلسفة الاستخلاف، التى تجعل المالک الحقيقى ـ مالک الرقبة ـ فى الثروات والأموال هوالله، سبحانه وتعالى، خالق وواهب ومفيد ومسخر هذه الثروات والأموال.. بينما الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ وليس (الفرد) أو (الطبقة) ـ مستخلف فى هذه الأموال والثروات، له فيها ملكية الحيازة، والاستثمار، والاستمتاع، فى إطار بنود عقد وعهد الاستخلاف.. فى إطار التكافل بين سائر أعظاء سد الأمة الواحد..

ولقد ميز الأفغانى بين هذه (الاشتراكية الإسلامية)، التى دعا إليها الإسلام، وبين (الاشتراكية الغربية)، التى هى نزعة انتقامية فوضوية، مثلت إفراط المستغلين، ضد تفريط ملاک رأس المال المستغلين.. فكتب ـ وكأنه يتنبأ بما حدث للمنظومة الماركسية بعد قرن ـ يقول:

«إن ما تراه الاشتراكية فى الغرب، وما تتوخاه من المنافع بذلک المذهب، فى شكله الحاضر، وأسسه، وتخبط واضعى مبادئه، كل ذلک يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع..

فالاشتراكية الغربية، ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة (الانتقام) من جور الحكام والأحكام، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء، الذين إنما أثروا من رواء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم فى الخزائن، واستعملوا ثروتهم فى السفه، وبذلوها فى السرف والتبذير والترف، على مرأى من منتجها، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها، وبالاختصار، ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران.

فكل عمل يكون مرتكزًا على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط.. أفرط الغربيون (الأغنياء) بنبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبى حقوق الأمة، بالمناصب ومسببات الحياة، فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية فوضى، ولسوف ينعكس أمرها!

أما الاشتراكية فى الإسلام، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكنا الأخذ بها، لأن الكتاب الدينى، وهو القرآن، أشار إليها بأدلة كثيرة، منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب: (الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) فيعلم أن للخلق ربا واحدًا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء.. ومنها أن القرآن قد بين حقوق المستضعفين من الأمة، الذين لم يتمكنوا من لاشتراك مع أرباب القوة ورجال الحرب، فجعل لهم نصيبًا، إذ قال: (وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وِلِلرَّسُولِ ولِذِى الْقُرْبى والْيَتامى الْمَساكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ وما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ واللّهُ عَلى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ) [الأنفال: ٤١]..

وفى موضع آخر جاء القرآن مقرعًا لمن يكنزون الذهب والفضة، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة..

وهكذاترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات القرآن تترى..

وكان الإخاء الذى عقده المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بين المهاجرين والأنصار أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا..

فكل اشتراكية تخالف فى روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام، لا تكون نتيجتها إلا ملحمة كبرى، وسيل الدماء ولا سيل لعرم من الأبرياء، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شىء ينتفع به أحد من الخلق.. فاشتراكية الغرب كلمة حق يراد بها باطل.. واشتراكية الإسلام هى عين الحق، والحق أحق أن يتبع..».

***

و لأن جمال الدين الأفغانى كان أكبر من فيلسوف.. وأعظم من مجتهد.. فلقد جمع إلى الفلسفة والاجتهد ملكة التجديد لحياة الأمة ودنيا المسلمين، ومن ثم كان واعيًا بأن المشروع الإسلامى للنهضة، لن يرى النور، ولن يكون له حظ من التطبيق والسيادة والنجاح إلا بالانتصار على العقبات الكبرى التى تحول دون إقامة قواعد هذا المشروع.. وفى مقدمة هذه العقبات الكبرى:

١ ـ الاستعمار الغربى.. وفى المقدمة منه يومئذ الاستعمار الإنجليزى..

٢ ـ والاستبداد الشرقى.. الذى يشل طاقات الأمة، فيحول بينها وبين التصدى للاستعمار، وتمهيد الطريق للنهضة الإسلامية.

و إذا كان الكفران بالطواغيت هو المقدمة الضرورية للإيمان بالتوحيد لله، سبحانه وتعالى، فإن العداء للاستعمار، والجهاد فى سبيل تحرير الوطن والأمة من كل ألوانهـ الفكرية.. والعسكرية.. والاقتصادية..

والسياسية ـ هو المقدمة الضرورية لإقامة النهضة الشرقية على أساس الإسلام.. ولذلك، كانت حياة الأفغانى كلها صراعًا لا هوادة فيه ضد الاستعمار الغربى، الزاحف على أقاليم عالم الإسلام، وفى المقدمة منه الاستعمار الإنجليزى، الذى كان له نصيب الأسد فى البلاد الإسلامية بذلك التاريخ.. وعن هذا الاستعمار كتب جمال الدين فقال:

«إنه لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شىء من الضر..! لقد صار الإنجليز كالدودة الوحيدة، على ضعفها تفسد الصحة، وتدمر البيئة..!

وكيف نرضى، ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته»؟!.

ولقد خاطب جمال الدين أهل الهند ـ الذين تستعمر إنجلترا بلادهم ـ داعيًا إياهم إلى الثورة على الإنجليز، فقال:

«يا أهل الهند، وعزة الحق، وسر العدل، لو كنتم، وأنتم تعدون بمئات الملايين، ذبابًا لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل فى آذان كبيرهم ـ (جلادستون) ـ وقرا، ولو كنتم، أنتم مئات الملايين من الهنود، وقد نسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفة، وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى، لجررتموها إلى القعر، وعدتم إلى هندكم أحراًا؟!».

ودعا أهل مصر إلى الثورة الشعبية على الاستعمار والاحتلال الإنجليزى، كما ثار الأفغان على هذا الاستعمار.. فقال:

«ذلك أن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم، وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أفضل شاهد على ما نقول..

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى، واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ فى البلاد، فلما قام الأهالى من كل صقع، والتحمت المقاتل فى جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألفًا عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة إنجلترا، بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترلينى، إلى ترك البلاد..

و إن على المصريين أن يقتدوا بالأفغانيين لينقذوا بلادهم من أيدى أعدائهم الأجانب.. وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة، وإنما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من حشائه، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة.

وعلى المصريين عمومًا، وعلى الفلاحين خصوصًا أن يجمعوا، أمرهم على أن يمنعوا الحكومة (الإنجليزية) كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين: لا نطيع إلا حاكمًا وطنيا.. فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارًا، بل ومن الجنس الإنجليزى نفسه..».

إن مهادنة الاستعمار هى الخيانة بعينها(فلسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببًا فى خطوة سيخطوها العدو على أرض الوطن، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها..

***

ـ ولم يكن الاستقلال، عند جمال الدين الأفغانى مجرد (عَلَم) و(نشيد).. بل ولا هو الاستقلال السياسى وحده. وإنما كان، مع الاستقلال السياسى.. والفكرى، الاستقلال الاقتصادى، الذى يحرر ثروات الأمة وعالم الإسلام من استغلال ونهب الشركات والحكومات الاستعمارية ورءوس الأموال الأجنبية:

«فغاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هى: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم، ينعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهى: نفض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس أموال إسلامية. وفوق جميع هذا، هى: تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارک والعقود، التى ما دامت خارجة من أيدى العالم لإسلامى فهو يظل عالة على الغرب»[١٠].

***

وم الاستعمار ـ بتجلياته المتعددة ـ كان الاستبداد ـ بأشكاله المختلفة ـ الركيزة الأساسية، والتحدى الأخطر لنهضة الأمة وتحررها، وانعتاقها من قيود المأزق الحضارى الذى تردت فيه.. ولقد أولى جمال الدين الأفغانى هذه الجبهة ـ جبهة الاستبداد ـ عناية كبرى فى سيرته الجهادية ـ الفكرية والعملية ـ فكتب ـ ضمن ما كتب ـ يقول:

«إن من الخير للملک أن تكون ملايين رعيته أصدقاء له من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص..! وأن الفلاح والعامل والصانع فى المملكة أنفع من عظمة الملک ومن أمرائه.. ولقد رأينا أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملک ولكن لم ير ملكًا عاش بدون أمة ورعية..!

و إن مصر لا تحيا، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة.

فخير صفات الحاكم (القوة والعدل)، ولا خير بالضعيف العادل، كما أنه لا خير فى القوى الظالم..

---

١٠. لو ثروب ستودارد (حاضر العالم الإسلامى) مجلد ١ ص ٢٨. ترجمة: عجاج نويهض، وتعليقات: شكيب أرسلان، طبعة بيروت الأولى.

وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به: الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح..

والقوة النيابية لأى أمة كانت، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوى أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها..

إن إرادة الشعب غير المكره، وغير المسلوبة حريته، قولا وعملا هى قانون ذلك الشعب المتبع، والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادمًا له، أمينًا على تنفيذه.. وعلى الحاكم أن يقسم لأمنه على صون الدستور وأن تتوجه الأمة على هذا الأساس، فإن حنث بقسمه، وخان الدستور، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس..!».

و إذا كان جمال الدين الأفغانى قد رفع شعار «الجامعة الإسلامية» ودعا إلى وحدة أمة الإسلام، وترابط أوطان المسلمين، وأقام فى سبيل ذلك التنظيمات السياسية والفكرية التى جسدت «الأممية الإسلامية» مثل «جمعية العروة الوثقى» ـأصار لهذا الصحف والمجلات.. ومارس العمل فى هذا الميدان حتى وافته المنية.. فلقد قدم لهذه «الجامعة الإسلامية» تصوراً «واقعيا..عصريا» راعى فيه (التمايزات الوطنية) و(القطرية) و(القومية)... فتحدث عن:

«اتصال أوطان الدول الإسلامية فى الأراضى، واتحاد شعويها فى العقيدة فكلهم يجمعهم القرآن»

ثم تسأل:

«أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟!

ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق فى أصلو دينهم».

ثم مضى ليقول:

«لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. إلا أن هذا يعد كونه أساسا لدينهم، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات»[11].

***

تلك إشارت ـ مجرد إشارات ـ إلى بعض معالم المشروع الحضارى النهضوى، الذى جسدته حياة هذا المصلح الثاثر، والثاثر فى سبيل الإصلاح.. والذى كانت كتاباته وأماليه، وكوكبة العلماة والقادة والثور الذين

---

١١. جميع النصوص التى أوردناها للأفغانى ـ فى هذا التقديم ـ مصدرها الطبعتان التان سبق أصدرناهما لأعماله الكاملة.. طبعة القاهرة ١٩٦٨ وطبع بيروت ـ جـ ١، ٢ ـ ١٩٧٩ م، ١٩٨١ م.. ولقد صدر لنا عنه أيضا كتابان هما: (جمال الدين الأفغان-: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام) طبعة القاهرة ١٩٨٨ م، و(جمال لدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض) طبعة القاهرة ١٩٩٧ م، هذا إلى العديد من الدراسات والأبحاث فى العديد من المؤتمرات العلمية والدوريات الفكرية المتخصصة.

صنعهم على عينه، فى مختلف ربوع العالم الإسلامى، مكرسة جميعا لهذا المشروع.. إنها من المسلمين بالإسلام.. وتجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا الشرق وحياة المسلمين..

و إذا كنا قد سبق وعقدنا لترجمات المستفيضة والدراسات الموسعة عن سيرة ومسيرة وأفكار جمال الدين الأفغانى ـ فى التقديم لأعماله الكاملة.. وفى الكتب التى أصدر ناها عنه.. فإنا نختم هذا التقديم:

«هو السيد محمد جمال الدين، بن السيد صفتر، من بيت عظيم من بلاد الأفغان.. حنيفىّ. وهو، وإن لم يكن فى عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل ميل إلى مذهب السادة الصوفية.. يمثل لناظهر عربيا محضًا من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين سكنة الحجاز.. وكان مقصده السياسى، مدة حياته: إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، حتى تلحق الإمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده..

أما أخلاقه، فسلامة فى القلب سائدة فى صفاته، وحلم عظيم عظيم يسع ما شاءالله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أودينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقضّ منه الشهب! فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثّاب!

وهو كريم، يبذل ما بيده، قوى الاعتماد على الله، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر. عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه.

طموح إلى مقصده السياسى.. إذا لاحت له بارقة منه تعجّل السير للوصول إليه ـ و كثيرا ما كان التعجل علة الحرمان.

وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام، لا يهاب الموت، كأنه لا يعرفه.

إلا أنه حديد المزاج ـ وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ـ إلا أنه صار فى رسوّ الأطواد وثبات الأوتاد.

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، لا يعد نفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر..

ولو قلت: إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ..! فكأنه حقيقة كلية، تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يشاكله!

لقد أوتيت من لدنه حكمة أقلب بها القلوب، وأعقل بها العقول! وأعطانى- حياة أشارك بها محمدًا (صلى الله عليه وآله)، وإبراهيم، والأولياء والقديسين!»[١٢].

---

١٢. انظر هذه الترجمة كاملة فى: (الأعمال الكاملة للإعلام محمد عبده) جـ ٢ ص ٣٣٦ ـ ٣٤٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٣ م.

ذلكم هو جمال الدين الأفغانى... موقظ الشرق.. وفيلسوف الإسلام.. والمشروع النهضوى الإسلامى، الذى يجده الباحثون والقراء فى آثاره الفكرية التى قدمنا بين يديها هذه الصحفات.. الآثار التى قام بجمعها ودراستها والتعليق على بعضها، العالم الكبير والشهير، **السيد هادى خسرو شاهى**، وهى حصيلة جهوده المستمرة منذ نصف قرن، نضعها اليوم بين أيدى الجميع

والله نسأل أن ينفع بها، طاقة خلاقة فى إيقاظ الأمة.. إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

القاهرة فى غرة محرم ١٤٢٢ هـ

٢٦ مارس ٢٠٠١ م

اكتور / محمد عمارة

جمال الدين الحسينى

حياته ونضاله

سيّد هادى خسرو شاهى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حين تغفو بعض الأمم لفترة من تاريخها يعبث بمصيرها أبالسة جهنم وزبانية سقر ولا تستفيق حتى يمنّ الله عليها برجال يعرفون الحق ويتّبعون سواء السبيل حاملين فى أعناقهم رسالة تدعو إلى الإصلاح والتوحيد للنهوض بهذه الأمة من جديد، محاولين تخليصها من تسلّط العتاة وتحكّمهم تجبّر المستكبرين واستعلائهم معيدين لهذه الشعوب تصورها الصحيح للعقيدة عبر صراع شديد وطويل مع الفئات الباغية، كى تستوى كلمة الحق وتعلو بعد أن تنهار الممالک والعروش التى قامت خلال هذه المدة من الزمن.

وكلما بعث الله مبشّراً ونذيراً قام له مناوئون وكلما جاء رجل صالح هبّت لمحاربته زبانية من عبدة الطاغوت حتى إذا اكتملت الصورة بدأ الصراع بين الخير والشر واضحًا مجسدًا برجل بسيط مؤمن قد هداه الله الصراط المستقيم وبين مؤسسات وأجهزة وسلطات وعروش لا يهمها سوى عَرَض الدنيا ولا تحسب للآخرة أى حساب.

ولقد جاء التاريخ بأمثلة كثيرة وأنبت رجالا كثيريين وشهد صراعات مريرة لا تنتهى بين الخير والشر. لا تنتهى لأن الحملة المسعورة التى يشنها الفجّار تبقى مستمرة حتى بعد موت الصالحين، ويبقى هَمّ المستكبرين تحطيم الصورة المثلى للقدوة الصالحة كى لا يكون له أدنى تأثير على الأجيال التالية بعد موته; لذلک تعمد الفئة الباغية دائما على تفتيت الأرضية الصلبة التى خلّفتها الدعوة لله، وذلک من خلال التشكيک بصاحبها من جهة والافتراء والتزوير فى أعماله وأقواله من جهة أخرى.

من هؤلاء واحد تعرّض فى حياته لما تعرض، ويتعرّض بعد موته وفى الخمس سنوات الأخيرة من أيامنا إلى حملة افتراء منظمة، تحاول النيل من تاريخه الجهادى وتراثه الفكرى ومنهجه الإسلامى بالاستناد إلى معلومات ملفقة ووثائق مزوّرة من جهة، وبالتشكيک فى سلوكه السياسى وعلاقاته المتنوعة من جهة أخرى.

لقد امتدت يد الإثم مرة أخرى إلى العالم المناضل السيد جمال الدين الأفغانى فحاولت أن تنسب إلى اسمه وأصله ومكان ولادته تشويهات ما أنزل الله بها من سلطان إلى درجة إصدار كتاب عنه تحت عنوان «إيرانى غامض فى مصر»!!

ونحن فى هذه المقدمة لا يهمنا على الإطلاق أن يكو الأفغانى من مواليد إيران أو أفعانستان، لأن الحكم على الرجل يأتى من خلال جهاده الطويل وفكره السليم ودعوته المستمرة لتحقيق وحدة المسلمين.

ولكن يهمنا أن نعلن وبصراحة بأنّ هذه الأقلام المحسوبة على الإسلام والممعنة فى نبش تاريخ أعلام الثورة الإسلامية ـ وخاصة جمال الدين ـ لا تريد إلا ضرب الصحوة الإسلامية ـ فى كل مكان، ولكن كيف وبأى وسيلة؟

فالهجوم على شخصية السيد جمال الدين الحسينى وجهاده، تحت ستار «الدراسة الأكاديمية»! ثم تعريب ونشر أكاذيب الكاتبتين: الأمريكية «نيكى كدى» والإيرانية «هما ناطق»، لا يأتى إلا لأجل تشويه سمعة السيد بين الشباب المؤمن المسلم، فهم لا يبغون إلا أن يقولوا للشباب بأن النهج ـ الذى تسيرون عليه ليس بأصيل، بل إنه يمتد إلى جذور «ماسونية»!!

وليقولوا للمسلمين فى كل مكان، بأن أطروحة السيد، فى الكفاح ضد الظالم والمستبد والمستغل لا تمثل طموحاتكم فى تحقيق العدالة الاجتماعية.

ويقولوا للمسلمين العرب بأن السيد كان شيعيا إيرانيا غامضًا! وعلى من يريد انتهاج درب جمال الدين أن يفهم أنه يرتبط بحركة إسلامية غير سنّية!

ويقولوا للإيرانيين، بأن السيد كان أفغانيا سنيا! فما بالكم بالاهتمام به وبأفكاره...؟! ولكن الأسئلة المتتالية، قد تبقى فى ذهن الشباب، وفى كل مكان: إذا كان السيد ماسونيا فلماذا كانت تطرده الطواغيت من كل بلد؟ وإذا كان طائفيا فكيف كان مع الشيعة فى إيران والعراق، ومع السنّة فى أفغانستان والهند ومصر و...؟

وإذا كان إيرانيا طائفيا غامضًا! فلماذا كان يفكّر فى وحدة المسلمين؟ وإذا كان أفغانيا سنيا فكيف يحرّض علماء الشيعة فى إيران والعراق للقيام بالثورة ضد الطواغيت والاستعمار؟ وإذا...

والشباب، شباب الصحوة الإسلامية يجيبون على هذه الأسئلة وغيرها بأنفسهم، رغم ما يكتبه «كتاب السلاطين»:

فالسيد الحسينى لم يكن إيرانيا ولا أفغانيا ولا مصريا ولا عراقيا ولا... ولا... بل كان عالمًا مجاهدًا، أسد آباديا وكابوليا وإسلامبوليا ـ كما جاء فى توقيعاته المتعددة ـ لأنه وقف ضد الطغاة فى كل مكان، وطالب بإقامة الحكم الإسلامى والوحدة الإسلامية، ودعا لنصرة المسلمين فى أفغانستان والهند ومصر والسودان وتركيا وإيران و...

وكان مصريا وسودانيا أيضًا، حيث واجه الاحتلال البريطانى لمصر والسودان (راجع مقالاته فى العروة الوثقى)، وقبل وبعد هذا كله فهو كان حسينيا كربلائيا، لأنه رفع راية الرفض ورفرف علم الحرية وقد تسلّمها من جده الشهيد الإمام الحسين (رضى الله عنه) وبذلك كان السيد الحسينى أسلاميّا يدافع عن كل العالم الإسلامى، ولأجل هذا فهو حى فى ضمائر الشباب فى كل من مصر والعراق وإيران وأفغانستان والهند وپاكستان وتونس والمغرب... وفلسطين وفى كل خلية تنبض بالرفض لكل أنواع التبعية والاستعمار.

أجل، أيها الإخوة، سوف يبقى جمال الدين الحسينى الرمز الثائر بين الشباب، رغم الأقلام الفاسدة التى تريد اغتيال فكره وجهاده ـ بعد اغتياله جسديا بواسطة عملاء الطاغوت ـ لتنتزعه من قلوب الشباب الواعى;

لأنه كان يرجو المسلمين بأن: «يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين» ولأنه كان يعلّم دائمًا: «فلا بد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرة..».

... يريدون اغتياله نهائيا، لأنه قال: «خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال» وهذا ما يخشاه الاستعمار والطواغيت! وتريد الأقلام المرتزقة نفيه على الإطلاق وإلى الأبد!

... وإذا كان السيد الحسينى قد توفى دون تحقيق حلم الوحدة بين المسلمين، وإعلاء كلمة الإسلام فى البلاد، فإنّ الفكرة بقيت حية عند الضمائر الحية، تتطلع لها قلوب المسلمين فى كل مكان.

***

واليوم وبعد مرور الذكرى المئوية لصدور جريدة «العروة الوثقى» وهى المجلة الإسلامية العالمية الأولى التى أصدرها الأفغانى بالتعاون مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكرد على حملات التشويه والافتراء، نعيد طباعة المجموعة الكاملة (١٨ عدداً) مع نبذة صغيرة عن حياة العالم المناضل وأفكاره، وذلك كهدية للعالم الإسلامى ودفاعًا عن الحق والعدل وخدمة للتاريخ.

***

حياة الأفغانى ونضاله

فى حياته كان مالئًا للدنيا وشاغلا للناس، وبعد ما يقرب من قرن على وفاته لم يزل بتوقُّده وتوهجه مالئًا للدنيا وشاغلا للناس. فى حياته كان صديقًا للعامة، للفقراء،وكان قريبًا من الحكّام والوجهاء والقادة، وبعد قرن على وفاته، لم يزل فى صف الناس ـ عامة الناس ـ وإن اختلف حوله القوم ومن يمثلهم.

عاش حياته القصيرة محلِّقًا كنسر شرقى، يطوف بالبلاد والحواضر، وطموحه يكاد يحيط بكل البلاد والحواضر، حمل هموم الأمة وكأنها عائلته الصغيرة، وعمل لمشروع نهضتها وصعودها فى كل دقيقة من عمره وكأن ما يعمل له كان قاب قوسين أو أدنى، ومات كأبطال الأساطير بعد أن أثقلته أحزان الإحباط والفشل والوحدة.

كان حرا شريفًا أبيا. وما يثير الحزن أنه مات متألمًا وحيدًا ولم يكن يدرى أن مشروعه ما كان ينتهى، بل كانت تلك بدايته فقط... أو لعلّه كان يدرى.

إن الرجل الذى يدين له كل الإسلاميين اليوم من «أرخبيل الملايو» إلى «وادى الذهب» بأنه حامل بذرة البداية وحاضنها وناثرها فى كل البلاد، إنه السيد جمال الدين الأفغانى ـ الأسد آبادى.

الصقر المحلق

كان مولده فى أسد آباد حوالى ١٨٣٨ م، وفى السنين الأولى من عمره كان يجلس فى النجف للدراسة، وبعد خمس سنوات يعود إلى بلدته وفى نيته الذهاب للهند الإكمال دراسة العلوم والمعارف التى لم يستطع دراستها فى العراق وقد سأله والده البقاء والاكتفاء بما تعلم ولكن طموحه العظيم كان يدفع به إلى قدره، قال:

«إننى كصقر محلّق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيّقًا لطيرانه! وإننى أتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسونى فى هذا القفص الضيّق الصغير».

كان القرن التاسع عشر قد بدأ فى قطع سنوات نصفه الثانى حين بدأ جمال الدين رحلته الطويلة المرهقة، وكانت أوروبا قد سارت شوطًا هائلا فى مشروعها التصنيعى الداخلى ومشروعها الاستعمارى الخارجى، لقد زحف الغرب الاستعمارى على العالم فاحتل معظم أجزاء إفريقيا والهند وشمال إفريقيا الإسلامى ـ ما عداليبيا ـ وكان يطمح إلى أن يدمّر ما تبقى من الوطن الإسلامى بتدمير الدولة العثمانية، وبالتالى بسط هيمنته على كل العالم القديم. وفى كلكتا حيث قضى الأفغانى حوالى العام فى العلم والدراسة، كان واقع الرحلة يحيط به من كل الجهات. وقد مضى من الهند إلى جدة حاجا وهو فى حوالى التاسعة عشرة من عمره، ومنها إلى النجف وكربلاء، ثم إلى بلدته أسد آباد وإلى طهران ثم خراسان ومنها قرر التوجّه إلى أفغانستان حيث استقر فى كابول وبدأ حياته العامة هناك كما يقول د. محمد عمارة ـ ألف أول كتبه حول تاريخ أفغانستان، وقد كتبه بالعربية وسماه (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان).

كانت أفغانستان فى ذلك الوقت ميدانًا للدسائس الإنجليزية، حيث كان الاستعمار البريطانى يأمل فى السيطرة عليها بإذكاء الصراع بين أمرائها وشحن أحدهم ضد الآخر، وقد دخل الأفغانى إلى حمى الصراع الذى كان طرفاه حينها الأمير دوست محمدخان، وثيق الصلة بالاستعمار البريطانى، والأمير محمد أعظم خان الذى كان معادياً للإنجليز. وقد انحاز الأفغانى للجانب المعادى للإنجليز وكان ذلك أول موقف سياسى له وأول خيار واع لازمه حتى نهاية حياته.

استمرت حياة الأفغانى فى أفغانستان حتى ١٨٦٨ م. أثناءها تولى منصب الوزير الأول ـ كما يقال! ـ فى حكومة الأمير محمد أعظم خان، وخاض حرب ١٨٦٢ م ضد دوست محمدخان وجماعته. وقد انتقل التأييد الإنجليزى بعد وفاته، إلى شير على خان الذى استطاع أخيراً إيقاع الهزيمة فى معسكر محمد أعظم، وكان ذلك مقدمة الشدّة على الأفغانى الذى عزل من كل مناصبه وعاش محاصراً مراقبًا فى كابول إلى أن وافقت الحكومة على طلبه بمغادرة البلاد مشترطة عدم ذهابه إلى إيران حتى لا يلتحق بمحمد أعظم خان الذى كان يعيش منفيا فيها.

ولم يكن أمامه من طريق إلا الهند، حيث كان الإنجليز يحتلون البلاد ويحتفظون له بملف عدائه ومحاربته لنفوذهم فى كابول. ورغم استقبال العلماء والوجهاء وقادة الرأى من المسلمين الهنود له، ورغبتهم فى لقائه والالتفاف حوله وهو الذى سبقته أخباره إليهم، إلا أن حكومة الهند البريطانية لم تكن مطلقًا على استعداد لتحمّل بقائه، وبعد أشهر فقط من وصوله إلى الهند، كان الإنجليز يضغونه على إحدى سفنهم المسافرة إلى مصر سرّا حتى لا يثور الناس.

وفى عام ١٨٦٩ م وصل السيد جمال الدين الأفغانى إلى القاهرة، وكانت تموج يومها بالأحداث والتيارات، ما بين أوروبا الزاحفة ببريق مدنيتها وصعودها المادى والأستانة حيث الانتماء التاريخى السياسى وحلم بقاء

الإسلام والمسلمين، وما بين أمة تريد حقوقها فى الحرية الحقيقية والعدالة وقصر الخديو المتردد بين الخوف على السلطة وأحلام الإمبراطورية التى غذتها جغرافيا مصر ومركزها العظيم.

وفى القاهرة التفّ حوله الناس، من طلاب الأزهر إلى كبار رجال الدولة والسياسة، ولكن مشروعه كان يتبلور فى ذهنه، والصقر المحلّق الساكن روحه، يدفعه إلى موقع آخر، كان جمال الدين الأفغانى قد بدأ يدرك آفاق أزمة الأمة وتخلّفها وتكالب دول الغرب عليها، ووجد أن الأمل فى الإصلاح، إن كان ما يزال هنالك وقت لذلك! لا بد أن يبدأ من المركز من الأستانة.

وهكذا بعد أربعين يومًا فقط من الإقامة فى القاهرة، كان السيد جمال الدين يحمل كتبه التى رافقته إلى كل محطات رحلته ويبحر إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن السلطان عبد الحميد قد تولّى الحكم بعد.

وقد استقبلته الإستانة فى استقبالا حارًا وعيّن هناك عضوًا فى «المجلس الأعلى للمعارف» وبدأ نشاطه الواسع، ثقافيًا بشكل أساسى وسياسيًا بشكل ثانوى، وكان فى محاضراته وندواته وأحاديثه يركّز على تحرير الإسلام من التواكل والفكر من الخرافة و يدعو إلى عقلانية الفكر الإسلامى وبرهانيته. ولكن الأمور لم تجر مجرى حسنًا، فقد بدأ الوهج الذى أحاط به يثير الحسد والغيرة فى عاصمة كانَت تعيش آخر مراحلها وقد تحوّلت من عاصمة للقوة والفتح إلى مركز للتآمر والدسائس والأطماع من كل جهة.

وكانت محاضرته التى ألقاها فى دار الفنون ـ مثل كلية للتكنولوچيا فى وقتنا الحاضر ـ والتى تحدّث فيها عن «الصناعات» موضحًا أفكاره حول النهضة، كانت تلك المحاضرة بداية لعاصفة كبيرة كانت نذرها تتجمع حوله منذ زمن، وقد تطورت الأمور إلى أن انقسمت الأستانة إلى معسكرين، أحدهما مع الأفغانى والثانى مع شيخ الإسلام الذى كان يمثّل السلطة الرسمية الدينية فى الدولة التى تسيطر عليها المتصوفة والفكر الصوفى منذ زمن بعيد. ومع اشتداد الهجوم عليه طلب منه السلطان مغادرة الأستانة لفترة مؤقتة ريثما يهدأ الضجيج المثار حوله، فغادرها ليصل القاهرة مرة أخرى فى آذار (مارس) ١٨٧١ م.

مؤازرة محمد عبده

يقول الشيخ محمد عبده صديق جمال الدين ورفيقه وتلميذه لفترة طويلة من الزمن واصفًا مصر فى تلك الفترة ووصول الأفغانى إليها: «إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٧ م كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكًا لحاكمهم الأعلى، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرّف فيها حسب إرادته.. ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيًا يحقّ له أن يبديه فى إرادة بلاده.. أو إرادة يتقدّم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحًا لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصروفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربهم عليه، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على إلى ذلك التاريخ الذى ذكرناه ١٨٧٧ م، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الإسفار ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبها، ومع إسماعيل باشا أبدع

«مجلس الشورى» فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنًا فى مصالح بلادهم وأن لهم رأيًا يرجع إليه فيها، لم يحسّ أحدٌ منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية.

.. هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يؤمر به! هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له، أو الوجهة التى يتوجّه إليها الحاكم! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خير من ذلك؟ هل كان يمكنه أن ينطق بما حدّثه به فكره؟ كلا فإنه كان، بجانب كل لفظ نفى عن الوطن، أو إزهاق للروح، أو تجريد من المال.

... وبينما الناس على هذا، لا كاتب ينبههم ولا خطيب يعظهم، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه، وإن كان مما جرت به السّنة الإلهية فى كل زمان.

جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب بصير فى الدين، عارف بأحوال الأمم واسع الاطّلاع، جمّ المعارف جرىء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية.. وكان طلبة العلم يتنقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة».

أخصب السنوات

فى مصر أمضى جمال الدين أخصب سنوات حياته وأكثرها إنتاجًا وأثرًا، فقد اهتم بالإسلام علمًا وتراثًا، وكشف أمام من التفوا حوله واستمعوا له قيمة أن يبعث تراث الأمة فى عصرنا المزدهر من جديد، وقيمة أن تتمثل الأمة تاريخها وتراثها لتنهض فى مواجهة الاستعمار الغربى، وقد أدرك أن حالة الهبوط والانحطاط قد أصابت كل أدوات الحضارة بما فهيا اللغة وأسلوب الخطاب. ومن حول الأفغانى نشأت لغة جديدة وبلاغة جديدة، وفى فترة قصيرة أخذ أصدقاء وتلاميذ جمال الدين يصدرون الصحف والمجلات التى أثّرت تأثيراً كبيراً فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وقد يدأ العمل بإصدار صحيفة «مصر» التى ترأس تحريرها أديب إسحاق، ثم «التجارة» باسم إسحاق وسليم النقاش معًا، و«امرأة الشرق» التى أصدرها تلميذه إبراهيم اللقانى.

وكان الأفغانى يدرك أن حسم قضية مصر لن يكون فى نهاية الأمر إلا باستنهاض شعب مصر، وفى كل ندواته ومحاضراته كان يوجّه حديثه مباشرة للمصريين، كل المصريين، لأن يقفوا من أجل حقوقهم ضد طبقة المترفين من الشراكسة وباقى المماليك، وأن يعوا أطماع المستعمر الأوروبى التى كان يراها تهدد كل مستقبل مصر. وبعد زمن قليل كان الأفغانى يؤسس أول وأهم أحزاب مصر الحديثة «الحزب الوطنى» الذى ضم معظم وجوه الرأى والفكر وأحرار السياسة والجيش فى مصر. وقد كان هذا الجيش هو الأب الشرعى لثورة عرابى عام ١٨٨١ م.

ولكن قنصلى الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا أدركا بعد زمن قصير أى عاصفة تلك التى تتجمع تحت عباءة السيد جمال الدين، وبدأت حملة من الدسّ والتحريض لدى الخديو توفيق الذى لم يكن بحاجة إلى كثير من التحريض. فالرجل ـ الأفغانى ـ كان خطراً على مصالح الاستعمار الأوروپى بالدرجة نفسها التى كان يشكّل فيها خطراً على أدوات الاستعمار، ولم تكن تجربته فى أفغانستان ببعيدة عن أذهان كل الأطراف.

وفى ليل حار من ليالى القاهرة فى ٢٤ آب (أغسطس) ١٨٧٩ م، اقتيد الأفغانى وحيدا من أمام منزلة إلى مركز الشرطه، ومع أول شعاع للفجر أخذ إلى قطار السويس، وفى ميناء المدينة أركب أول سفينة مغادرة بر مصر. فى القاهرة كان الخديو ورجاله يغطون فعلتهم بسيل من الاتهامات والطعن فى ظهر الرجل الذى كان قبلها بأيام قليلة فقط نجم مصر فى الفكر والسياسة. كان ما حدث فى ذلك الصيف القاهرى الحار انقلابًا حقيقيا قامت به السفارات الأجنبية والقصر على قيادة الشعب المصرى الجماهيرية لإجهاض حركته المتوقعة، ولكن الانقلاب لم يكن كاملاً، فبعد عامين فقط كان تلاميذ الأفغانى يتصدّون لتوفيق ويضيئون تاريخ مصر الحديثة فى ثورة عرابى.

وصلت سفينة الأفغانى إلى بومباى التى قضى فيها حوالى العامين عاملاً بجهد لا يوصف من أجل توثيق علاقاته بكل القوى والفعاليات السياسية فى البلاد، وعندما بدأت الحركة العرابية فى مصر، ضيق عليه الإنجليز الحصار خوفًا من أن تؤدى اتصالاته إلى تصعيد فى الحركة، وقد نقل من بومباى إلى كلكتا، وعندما وصلته أخبار فشل العرابيين فى مصر واحتلال الإنجليز لأرض الكنانة، بدأ مشروع الأفغانى الكبير فى النضوج، والذى تمثل فيما بعد بتشكيل إسلامى عالمى تحت اسم «العروة الوثقى»ضم الكثير من قادة ورجال الأمة الإسلامية فى العالم.

الهجرة إلى پاريس:

اختار الأفغانى فى تلك الفترة پاريس مركزا لنشاطاته السياسية بسبب عوائق وقفت فى وجه نشاطه السياسى فى غيرها. إذ كانت مصر البلد الإسلامى الوحيد الذى يحظى بحرية الصحافة وتتركز فيه النشاطات الثقافية والسياسية، احتلها الإنجليز إبان الثورة العرابية عام ١٨٨٢ م واعتقلوا المفكرين والثوار وسجنوا منهم بعضًا ونفوا البعض الآخر وأغلقوا الجرائد والصحف وحجروا على الحريات العامة.

وأما الهند فقد كانت مستعمرة بريطانية منذ عام ١٨٥٧ م وغير ملائمة لأى حركة موقظة. وفى طهران لم يستطع الشاه أن يحتمل آراء جمال الدين الثورية. وأما إستنبول وبالرغم من وجود أصدقاء ومريدين للأفغانى، فقد كانت هنالک تيارات وشخصيات عديدة لم تسمح له بحرية العمل.

كما أن البلدان الأخرى قد سقطت، أما القسم الآخر فقد سقط تحت الحكم الاستبدادى، ولم يبق للأفغانى خيار إلا أن يسافر إلى أوروپا لكى يستأنف من هناک نشاطه، وكان طبيعيا أن يختار الأفغانى پاريس وليس لندن، حيث كان كفاحه السياسى الرئيسى موجهًا ضد الانجليز واستبدادهم وجرائمهم فى البلدان الإسلامية.

وصل الأفغانى إلى باريس بعد عام من فشل ثورة عرابى فى مصر، والتحق به تلميذه وصديقه محمد عبده، الذى كان منفيا فى بيروت. وفى غرفة صغيرة على سطح إحدى عمارات شارع «مارتل» أصدر الأفغانى مع صديقة محمد عبده الأعداد الأولى من الجريدة التى تركت بصماتها على كل ذلك الجيل، والتى أخذت اسم الجمعية السرية (العروة الوثقى) التى سبق للأفغانى أن أسسها واختار أعضاءها من صفوة المفكرين الملتزمين من مختلف البلدان الإسلامية ومن أصدقائه ومريديه.

وقد أخذ اسم الجمعية من الآية القرآنية الكريمة: (لا إِكْراهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وِيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَک بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لاَ انْفِصامَ لَها)[البقرة: ٢٥٦]. ويدلّ اسم الجمعية على أهدافها الوحدوية الإسلامية، وعلى تمسكها بالدين ونضالها ضد الطواغيت. وكان اهتمام الجمعية موجهًا للدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة، وبصورة خاصة عن المصريين بعد أن احتل الإنجليز بلدهم. يقول الأفغانى: «إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحتلها سواها، نظرًا لموقعها من الممالک الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلک البقاع». وحاولت الجميعة كذلک أن تتصل ببعض السياسيين الأوروپيين لحفظ حقوق المسلمين: «إن الجمعية قد عقدت الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهل أوروپا». وأما سرية الجمعية فقد كانت أمرًا فرضته عليها الظروف السياسية فى الشرق حينذاک.

***

العروة الوثقى

فجر الصحافة الإسلامية

وحصل أن اتفق أعضاء جمعية العروة الوثقى على إصدار جريدة عربية كما تشير المقالة الافتتاحية للجريدة: «واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى وأن تكون فى مدينة حرّة كمدينة باريس; ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيهًا للغافل وتذكيراً للذاهل».

وقد كُتب على غلافها: (بسم الله الرحمن الرحيم. العروة الوثقى لا انفصام لها).

مدير السياسة: جمال الدين الحسينى الأفغانى.

المحرر الأول: الشيخ محمد عبده.

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية.

من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان، رغبة نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان: 6RueMartela Paris .

مساهمات القادة السياسين

وتشير بعض المصادر إلى مساهمة سعد زغلول باشا (١٨٥٧–١٩٢٧) فى العمل. كما أنه توجد فى بعض الوثائق الأخرى إشارة إلى مساهمة إبراهيم المويلحى (١٨٤٦–١٩٠٦). ومن المعروف أن الأفغانى ترك حقيبة من الوثائق والأوراق عند صديقه الحاج محمد حسن أمين الضرب فى إحدى رحلتيه إلى طهران. وقد نشرت جامعة طهران قسمًا من هذه الوثائق قبل سنوات. وتوجد ما بين الوثائق مقالة بقلم الكاتب المصرى إبراهيم المويلحى، حوالى عام ١٨٨٦ م حيث يشير فيها المويلحى إلى وصوله إلى الأربعين من العمر، ويتحدّث فى مقاله عن خلافه مع رياض باشا الذى أجبره على ترك مصر والإقامة فى أوروبا. وفى عام ١٨٨٣ م كان يعيش فى إيطاليا وهناك سمع خبر قدوم الأفغانى إلى باريس. وكانت بينهما صداقة وطيدة فى مصر. ويقول: «بعد أن الأفغانى قد جاء إلى باريس من الهند كتبت إليه أن ننشر جريدة العروة الوثقى».

والظاهر أن المويلحى كغيره من أصدقاء ومريدى الأفغانى، كان عضواً فى جمعية العروة الوثقى، ولم تكن له مساهمة مباشرة مستمرة فى المجلة. ولم تكن هيئة تحرير المجلة تضم إلا الأفغانى وعبده ومترجم، كما يشير إلى هذا محمد رشيد رضا ى «تاريخ الأستاذ الإمام» بقوله: «لم يكن محرر سواه، إلا من كان يترجم بعض الأخبار من الجرائد الأوروبية ويلقيها إلى الشيخ ليصححها وينفخ فيها روح البشر».

توزيع الجريدة مجانا

كانت الجريدة ترسل إلى البلدان الإسلامية مجانًا، وقد كتب فى الصفحة الأولى من كل عدد: «ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية مجانًا. وقد عينت أجرة البريد خمسة فر نكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه». وكذلک ذكر محرر الجريدة فى مقالته الافتتاحية فى العدد الأول: (أن المجلة) ترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانًا بدون مقابل; ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلى أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده».

وكان المصدر المالى للمجلة يأتى من جمعية العروة الوثقى. وقد تساءل بعض الباحثين عن احتمال أن يكون السلطان العثمانى قد أرسل مساعدات للمجلة; لأن المويلحى يقول فى ترجمته الذاتية: «وأنشأ الأفغانى الجريدة فى پاريس ودافع عن حقوق الدين، ودعا المسلمين للوحدة باسم أمير المؤمنين (أى: الخليفة العثمانى) وأبغض هذا الخديو». والظاهر أنه لم تكن هناک مساعدة مباشرة من الأستانة رغم أن السياسة الوحدوية الإسلامية للمجلة تصب لصالح السلطان. ومما يؤيد ذلک كثرة المشكلات المالية التى واجهت المجلة بعد ثمانية أشهر وأدّت إلى توقف نشرها.

مكانة «العروة»

صدر العدد الأول من العروة الوثقى فى يوم الخميس ١٣ آذار (مارس) عام ١٨٨٤ م (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ)و استمرت حوالى ثمانية أشهر حتى توقفت بعد صدور العدد الثامن عشر والأخير منها فى ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٨٤.

برغم أعدادها القليلة وفترة حياتها القصيرة، فقد احتلت العروة الوثقى فى تاريخ الحركة والصحافة الإسلامية الحديثة مكانة مرموقة لم تصل إليها أى جريدة حتى الآن. فقد كانت الصحيفة الإسلامية الوحيدة التى حققت لنفسها عالمية الانتشار; إذ كانت توزع فى مختلف أنحاء العالم من مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وإيران وإلى أفغانسان والهند. وبفضل انتشارها الواسع استطاعت العروة الوثقى أن تبلغ رسالتها الإيقاظية إلى مختلف الشعوب المسلمة فى أقاصى العالم وأدانيه. وكانت فى عصرها أعظم صحيفة إسلامية وعربية وأعمق تأثيراً حيث تجاوز مدى تأثيرها زمن نشرها القصير، بل وقرنها كلّه. ولنعرف درجة تأثير العروة الوثقى على العقول يكفيک أن نشير إلى قصة محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) منشىء مجلة «المنار» والتحول الذى أحدثته العروة الوثقى فى نفسه بحيث غيرت مسيرة حياته. كان محمد رشيد رضا فى مطلع شبابه زاهدًا متصوفًا وفى عام ١٨٩٣ م وعمره ٢٨ سنة رأى فى محفوظات والده بعض نسخ «العروة الوثقى». ويصور هو نفسه ذلک الانقلاب الروحى الذى اعتلج فى داخله بقوله: «فكان كل عدد منها كسلک من الكهرباء اتصل بى فأحدث فى نفسى الهزّة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور ومن حال إلى حال. وكان الأثر الأعظم لتلک المقالات الإصلاحية الإسلامية ويليه تأثير المقالات السياسية فى المسألة المصرية». ويقول رشيدرضا: «إن الإسلام ليس روحانيا أخرويا فقط بل هو دين روحانى جسمانى أخروى دنيوى، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل».

أنشئت العروة الوثقى لهدف إيقاظ الشعوب الشرقية عمومًا والمسلمين خصوصًا والدفاع عن حقوقهم والتنبيه إلى خطط المستعمرين وتدخلاتهم فى البلاد الإسلامية والدعوة إلى المقاومة. وتشير المقالة الافتتاحية للعروة إلى سياسة الجريدة قائلة: «ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبًا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.. وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد.. وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهى ما تمسك به أعزّ دولة أوروبية وأمنعها.. تنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية. وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون.. وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها».

انطلاقًا من هذه الأهداف، تناولت الجريدة خلال أعدادها موضوعات عدّة كان من أهمها:

١ ـ المقاومة ضد الاستعمار الأوروبى وخاصة البريطانى: تحكى الجريدة عن جرائم الاستعمار فى الهند ومصر، وتثير المسلمين ضده وتدعوهم إلى المقاومة والجهاد، «إن السعى لإعلاء كلمة الحق وبسط الممالك وعموم السيادة واجب المسلمين. فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجدّ فيه حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض عنه»، «يا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسًا..». وإلى جانب ذلك كانت هناك انتقادات عديدة للسياسيين ورجال الدين المصريين كالشيخ المير غنى، الذين نادوا بوجوب طاعة الإنجليز وبترك المقاومة، كما تنتقد الجريدة السياسيين العملاء وغير الوطنيين كتوفيق باشا ونوبار باشا. ويتحدّث الأفغانى عن حركة المهدى فى السودان وجهاده ضد الإنجليز ويؤيد مواقف المهدى وصموده ضد الاستعمار ويهاجم بلا تردد السياسة البريطانية والحاكم الإنجليزى للسودان چوردون، ويدعو الدولة العثمانية ألاّ تشارك بجيش مع الإنجليز ضد المهدى، ومن المعروف أن بريطانيا عجزت عن أن تنال من ثورة الأفغانى وهجومه الرهيب على الاستعمار والمستعمرين رغم نفوذها، فلجأت إلى سلاح المال والملك، وأرسلت إلى الأفغانى تدعوه لزيارة لندن لتسأله رأيه فى حركة المهدى ولتحصل من على فتوى شرعية تناهضه بها، ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة: «إنها تعلم مقدرته، وتقدّر رأيه حق قدره، ولأنها تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك المودة والولاء!». وكان مما قاله له اللورد سالسبورى حسب الوقائع الرسمية: «لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدى وتمهّد لإصلاحات بريطانية فيه».

ورفض الأفغانى أن يقع فى الفخ البريطانى وسخر من العقلية الإنجليزية قائلاً: «إن السودان ليس ملكًا لبريطانيا حتى تتصرف فى عرشه». ويذكر الأفغانى فى عدد آخر رضى السلطان العثمانى عن حركة المهدى.

٢ ـ الوحدة الإسلامية: وكانت من أهم المسائل التى اهتمت بها العروة الوثقى. وقد دعت العلماء والشعوب إلى الوحدة وترك التعصبات الطائفية. «من الواجب على العلماء بحق الوراثة التى شرفوا بها أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية». «إن أقوى رابطة تربط بين المسلمين هى الرابطة الدينية.. وما توجهت عناية الإفرنج إلى بثّ الأفكار السابقة (أى: الأفكار الإباحية والإلحادية) بين أرباب الديانة الإسلامية إلا لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزّقوها إربًا وشُعَبًا». «الميل للوحدة والتطلّع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين».

ويدعو الأفغانى المصريين إلى الوحدة ضد عدوهم المستعمر ويدعو العثمانيين إلى مساندة مسلمى الهند. كما أنه يدعو الإيرانيين والأفغانيين أن يتّحدوا ضد الإنجليز. إن الوحدة الإسلامية عند الأفغانى لم تكن قضية سياسية مرحلية فحسب، بل اعتبرها جزءًا من الأصول الأساسية التى يدعو إليها الإسلام وهى أمر ضرورى سياسيا ودينيا وحضاريا: «هل آن الأوان ليصبح العالم الإسلامى من أدرنة إلى بيشاور دولة إسلامية متصلة بالأرض متحدة العقيدة يجمع أهلها القرآن..؟! أليس لكل واحد منهم أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله من قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات: ١٠]، فيقفون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب؟! لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصًا واحدًا. فإن هذا ربما كان عسيرًا ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين.. ولكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه».

٣ ـ أسباب تخلّف المسلمين: ناقشت العروة الوثقى أسباب تخلف المسلمين وتحدثت عن بعضها، كتفرّق المسلمين وتشتّت قواهم وعقيدة بعضهم بالجبر وجهل الحكام وعدم المعرفة بحقائق الإسلام والتمسك بالأوهام وإهمال العلم. وانتقدت نظر الشرقيين إلى الغربيين: «أن نظر الشرقيين إلى الأوروپيين بغير الحقيقة جعلهم وهما وهم بهذا الظن يستسلمون لأعدائهم كرهًا ويجارونهم فى أهوائهم نفاقًا». كذلك انتقدت بعض الأدباء المسلمين وشعرائهم لأنهم «يحصرون رواياتهم فى حكايات مضحكة وقصص هزلية.. ورجاؤنا فيهم أن يسلكوا مسالك أدباء الأمم المتقدمة. وأن يأخذوا فى منشآتهم وأشعارهم طريقًا ينهضون فيه الهمم الخامدة ويحرّكون القلوب الجامدة ويحيون مكارم الشيم ويوردون الأمة مورد سابقيها من الأمم».

وكما اعتقد الأفغانى وأصحابه أن الله جعل «بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال والفضائل مثل الاستقامة فى الرأى والصدق فى القول والعدل والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته..».

وتوقفت أخيرا

ظهرت جريدة العروة الوثقى فى فترة حسّاسة كان الاستعمار فيها ذروة كبريائه و مده، ونظراً إلى تأثيرها العميق الواسع على عقول المسلمين ومواقفها الإسلامية الصارمة ضد الاستعمار البريطانى، فقد حاول الإنجليز منذ البداية دفع هذا الخطر الكبير. وحتى قبل إصدارها بعد أن تبلورت فكرة نشر الجريدة أدرك الاستعمار عظمة الخطر. يحكى محرّر العروة الوثقى: «عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنسية فكتبوا عنها قبل صدورها غير مستبينين لمشربها ولا كاشفين عن حقيقة مسيرها. فلما وقف على الخبر محرّر والجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدّة واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الإنجليز ونفوذها فى البلاد الشرقية، ولجوا فى إغرائها وألحوا عليها أن تعدّ كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول إلى البلاد الهندية والبلاد المصرية، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا».

عقوبة شراء الجريدة

وبعد أن انتشرت الجريدة واكتشف الاستعمار مدى تأثيرها، بدأ يخلق مشكلات عدّة. إلا أنه لم يستطع منع طبعها فى باريس وحاول أن يجد طرقًا أخرى، وذلك بتعقّب قرائها واضطهادهم وكذلك منع دخولها البلاد. فأصدرت الحكومة الهندية البريطانية قانونًا يعاقب بموجبه من يجوز عددًا من العروة الوثقى بالحبس لمدة سنتين وبغرامة مقدارها ١٠٠ جنيه. وكذلك ألزم الإنجليز مجلس الوزراء المصرى بإصدار قرار يمنع العروة الوثقى من دخولها إلى البلاد المصرية، كما أن حيازة الجريدة حسبت جريمة «وكل من توجد عنده العروة الوثقى يغرّم مبلغًا من ٥ جنيهات إلى ٢٥ جنيهًا». وهذه العقوبات التى فرضها الإنجليز على قرّاء العروة الوثقى أو جدت خوفًا فى قلوب المصريين حيث امتنع كثير منهم من استلام أعداد الجريدة كما يشير إليه محررها: «إننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا من بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يُرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفًا ورهبة، مع أنهم أحقّ الناس بالإقدام على أمور عظام فى هذه الأوقات. فإنّ الآمال فى خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة، فكيف يصل ببعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم أذ أهمّ ما فيها الدفاع منهم».

ونجح الإنجليز فى معركتهم ضد العروة الوثقى، وبعد أن مُنعت من الدخول إلى الهند ومصر، لم تستطع الجريدة أن تصل إلى قرائها المشتاقين وتبلّغ رسالتها. وفرضت هذه الظروف عليها التوقّف; فتوقفت نهائيا بد صدور العدد الثامن عشر فى ١٨٨٤/١٠/١٦ م/٢٦ من ذى الحجة ١٣٠١ هـ .

ولكن المناضلين الأفغانى وعبده قالا: «لا يعجزنا بثّ أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بأيّة وسيلة أخرى إذا دعا الحال فإنّ أنصار الحقّ كثيرون».

يقول الأديب والعالم اللبنانى الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ـ ١٩٠٩) عن تأثير العروة الوثقى: «إنه ما كان أحد ليشك فى أنّ جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابًا عظيمًا فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان..».

وكان الزعيم العرافى سليمان الكيلانى يقول كلما شاهد عددًا من أعدادها: «يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا!».

***

أفكار الأفغانى تعمّ الأمّة

فى عام ١٨٨٦ غادر جمال الدين پاريس إلى إيران ومنها إلى روسيا ثم إيران ثم لندن لحوالى عام.

وفى سنة ١٣٦٠ هـ/١٨٩٢ م عاد ثانية إلى إستنبول، فوجد حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد الذى كان قد تولّى الحكم فى سنة ١٨٧٦ م، وكان قلقًا مهمومًا وهو يدرك خطر أوروپا على السلطنة التى صمدت وحمت حدود الوطن لأكثر من ثلاثة قرون، وقد جاء الزمن الذى طغت فيه سلبيات تكوينها على إيجابياته فيما أوروپا فى أوج قوّتها وصعودها وأنظارها تكاد تلتهم الدولة العثمانية بما فيها. كان عبد الحميد يدرك أن إنقاذه البلاد لن يأتى إلا إذا استطاع أن يعيد توحيد الأمة والبلاد حوله، توحيدًا حقيقيا نهضويا أكثر منه توحيدًا سياسيا. وكان عبد الحميد يعرف تاريخ الأفغانى ونضالاته واتصالاته الوثيقة بكل أجزاء الوطن الإسلامى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، هكذا بدأت العلاقة القصيرة المضطربة بينهما.

الأفغانى من جهته كان مناضلاً واقعيا، يدرك ما فى الدولة العثمانية من سلبيات وعوامل تدهور، وكان يعرف أثر الإرث التاريخى لالتفاف الأمّة حول سلطانها، وحتى قبل أن تبدأ علاقته المباشرة بعبد الحميد، كان واضحًا فى «العروة الوثقى» وهو يبدى تأييده للسلطان ويدعو للالتفاف حوله فى الوقت الذى كان يوجّه فيه الانتقاد لسلبيات الحكم وانحرافاته.

وفى الأستانة بعد قليل من وصوله بدأت الأمور تنكشف أمامه، كان عبدالله النديم الصحفى والأديب والثائر المصرى قد سبقه منفيًا من مصر إلى الأستانة وكان واحدًا من تلامذته فى القاهرة، أوضح له منذ البداية أن الأمور لن تكون بالسهولة التى يتصوّرها وأن حاشية السلطان لا تحمل من الإخلاص لا اسمًا ولا جوهرًا وأن مشاريعه لإعادة تشكيل النظام السياسى للدولة وآراءه فى عقلنة الفكر وطموحه فى توحيد الأمة لن تجد آذاناً صاغية، وإن وجدت فلن تجد إرادة فاعلة.

كان عبد الحيمد «طيب القلب كثير الأخطاء» وكان يحمل على ظهره كل الخوف وسلبيات تراث التآمر فى عاصمة دولته فى الوقت الذى كان فيه مؤمنًا واعيًا للأخطار التى تهدد الدولة. كان يستمع لجمال الدين من جانب ومن الجانب الآخر يجد العشرات من الدارسين عليه وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادى الشيخ الصوفى السياسى، الذى كان شيخ طريقة وقريبًا من السلطان ومن أكبر أقطاب التآمر فى عاصمة الدولة العثمانية.

وشيئًا فشيئًا ورغم الجهد الهائل الذى بذله الأفغانى فى الأستانة وعبر اتصالاته فى الهند وإيران ومصر لتوحيد بلاد المسلمين، إلا أن آماله فى إنجاز شىء حقيقى بدأت فى التلاشى، لم يكن حماسه ولا إيمانه ولا طاقته هى التى نفدت، ولكن تهاوى المرحلة كان أكبر عزمه وإيمانه.

وفى عام ١١١٥ هـ/١٨٩٧ م مات الأفغانى عن ٥٩ عامًا بعد أن كان النسر المحلّق داخله قد ذوى منهكًا تعبًا. وقد أثير الكثير من الجدل حول وفاته، وقال البعض إنّه مات مسمومًا ولكن ذلك لم يعد ذا أهمية كبيرة الآن، فكيفية موته كانت مسألة صغيرة.. صغيرة أمام قانون موته الذى أوضح إلى أى درجة وإلى أى حدّ كان من الصعب أن يوقف الانهيار.

تراثه الفكرى

وقد ترك الأفغانى الكثير من التراث المكتوب، ولكن تكاد مصادره المعروفة اليوم تقتصر على كتابه الأول: «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» وكتابه الثانى: «الرد على الدهريين» ومذاكراته التى أملاها على تلميذه محمد المخزومى والتى طبعت بعنوان «تأمّلات الأفغانى» ثم مقالاته فى العروة الوثقى. ولكن ما جمعناه من آثاره وما سجّله الآخرون ممّن كانوا قريبين منه كان كافيًا لنتعرف على طبيعة تفكيره، وكان من أهم هؤلاء ما كتبه رشيد رضا مؤرخًا لمحمد عبده وناقلاً عنه معرفته للأفغانى فى كتابه «تاريخ الأستاذ الإمام» ولكن الدراسات والأبحاث حول الأفغانى لم تتوقف حتى يومنا هذا، وتكاد لا توجد وثيقة حول حياته باقية ولم يتم كشفها.

وفى الردّ على الدهريين صوّب الأفغانى نقدًا قاسيًا ضد اتباع الفسلفة الطبيعية الانتقائية التى أخذ بها احمد خان فى الهند، وكان قد التقاه فيها سنة ١٨٨٩، ولكن انتقاده كان أوسع من أحمد خان، فقد هاجم أيضًا ديموقراطيس وداروِن وأنكر عليهم إنكارهم لوجودالله تصريحًا أو تلميحًا.

وقد عمد إلى التدليل على الدور العظيم الذى لعبه الدين فى المدنية والرقى الإنسانى. وقال الأفغانى إن الدين علّم الإنسان وأعطاه طبيعته الروحية التى جعلته أشرف المخلوقات، مما أوصله إلى الترفّع عن الانقياد لميوله البهيمية وإلى العيش بسلام مع أقرانه، وقال إن الأمة الإسلامية قامت أصلا على أسس دينية وخُلقية راسخة إلاّ أنّ قيام الدهرية (الفلسفة الطبيعية) فى مصر وبلاد الفرس فى القرن العاشر تحت ستار الإسماعيلية لم تلبث أن قوّضت أسس العقيدة، وزرعت بذور الشك فى نفوس المسلمين. وأكّد على «أن فقدان الشكيمة الخلقية لدى المسلمين كان أهم الأسباب وراء الضعف الذى دبّ فى نفوسهم فاستطاعت جماعة الإفرنج أن تكتسح بلادهم وأن يقيموا فيها».

وقد وجّه الأفغانى كذلك مآخذ حاسمة إلى اتجاهات الفلسفة الأوروبية فى عصره ابتداء من العدمية إلى الاجتماعية والاشتراكية. وقال إنّ هؤلاء «بحجة مساعدة الفقراء والضعفاء أرادوا إلغاء الامتيازات الإنسانية كافة وإباحة كل الممتلكات».

حوارمع المستشرقين

وفى الردّ على المستشرق الفرنسى أرنست رينان عالج الأفغانى النقطتين الرئيسيتين فى محاضرة رينان العنصرية: الأولى: أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم. والثانية: أن العرب أمّة غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماوراء الطبيعة، ولا للفلسفة.

قال الأفغانى فى مقالته التى نشرتها صحيفة «ديبا» الفرنسية فى ١٩ أيار (مايو) سنة ١٨٨٣ م: «فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها، أصَدَرَ هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها، أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم؟ أم أنّ أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعًا مصدر ذلك؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصّص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة.. فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد، كما أعلم، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة)».

وقال عن النقطة الثمانية: «صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسّعوا نطاقها، ووضّحوها ونسّقوها تنسيقًا منطقيا، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدلّ على سلامة الذوق، وتنطوى على التثبيت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن روما وبيزنطة بُعد العرب عنها، وكان من السهل عليهم أن يستغلواكنوز علوم تلك المدينتين ولكنهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمّص الصورة العربية، ولم يكونوا يكفرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم».

العراك بين الشرق والغرب

وفى حياة الأفغانى تصاعدت الأطماع الاستعمارية الأوروبية فى الشرق الإسلامى، حيث أطلق على الدولة العثمانية لقب «الرجل المريض» وأصبح مصطلح «المسألة الشرقية» إشارة إلى التداول الدائر فى العواصم الاستعمارية حول خططها واتفاقاتها ومشاريعها للهيمنة على المنطقة، ولكن الأفغانى كان يفهم المسألة الشرقية فهمًا آخر، كتب يقول: «مختصر المسألة الشرقية، هى العراك بين الغربى والشرقى، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعًا من الدين..

إنّ فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العصماء، من قِبل السلطان محمد الفاتح هى التى ولّدت الحقد فى الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها، لمناصبة الدولة العثمانية، وتعمل على إذلالها وضعضعتها، وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة، وفى كل سانحة وفرصة.

والأكثر فى الحروب والتغلب، والانتصار فيهما، إنما يكون بالقوة والعلم، ولو أنّ الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست، أو من يوم ما استقلت به، وراقبت حركات العالم الغربى، وجرت معه حيثما جرى فى مضمار المدنية والحضارة، وقرنت إلى فتوحاتها المادية، القوة العلمية، على نحو ما فعلت اليابان أقله، لما كان ثمة مسألة شرقية، أو لما ظهر ذلك التباين الذى لا يثبت معه الحكم طويلا، وهو تحكّم الجهل بالعلم، أو حكومات جهل تحكم حكومات علم، ولا يتسنى اليوم للسيف المجرّد أن يحكم بأمّة يدافع عنها مدافع العلم».

الإسلام والاستعمار

وقال: «التزم الأتراك، والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاّء عالمون عاملون بحقيقة الإسلام وأحكامه، فعدلوا فى الرعية، وأمنوا من دخل فى ذمّتهم، وسهّلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعتهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون (بالفتح) من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم فى تلك الأعصر.

فظل النصارى فى طاعة العثمانيين، وظلوا فى كل المعانى رعية لهم ما دامت تلك المؤهلات والصافت فى الفريقين، القوة والعلم فى الحاكم، والضعف والجهل فى المحكوم. حتى إذا انعكس الأمر وبان الجهل مصدر الضعف فى الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة فى الأمم المحكومة، نهضت للتخلّص من ربقة الاستعباد لمن دونهم فى العلم، واستبسلت فى الرجوع لحكم ذاتها بذاتها. وقد سهّل عليهم كل صعب فى هذا السبيل، إقرار الدولة لهم جامعاتهم الكبرى، من دين ولسان وتاريخ، تلك النعمة التى كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة، ولا مناص لها من تحمّل أعباء ذلك، وهى سنّة الوجود».

وكان جمال الدين كبير الاهتمام بالتدهور والضعف العام الذى أصاب الدولة العثمانية وبلاد المسلمين، وقد أشار إلى سببين رئيسيين أدّيا إلى ذلك الضعف: أولهما: «لو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، بأن يتّخذ اللسان العربى وهو لسان الدين، لسانًا رسميا، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت فى أمنع قوّة وآمن حصن من الانتقاص والخروج عن سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، إذا فكّرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى، لأن تديّن الأتراك بالدين الإسلامى، على جهل باللسان العربى، جعل لهم فى القلوب منزلة.. فما قولك لو تعرّبت.. وزال داعى النفور والانقسام (بالتركى والعربى)..»

الحريّات والشورى

على أن دفاعه عن الحريات والشورى ومشاركة جماهير الناس فى الحكم وإرادة البلاد، كانت السمة التى طغت على كل أفكار، ودعوة الأفغانى فى كل البلاد التى طافها أو أقام بها. يروى الأفغانى فى خاطراته حوارًا دار بينه وبين خديو مصر إذ قال الخديو:«إنّنى أحبّ كل خير للمصريين ويسرّنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل.. إن دروسكم وأقوالكم المهيّجة ستودى بالشعب والبلاد فى التهلكة».

فردّ الأفغانى بأدب: «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده. ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضًا، فبالمنظار الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى.. ينظر به لسموّكم..! وإذا قبلتم نصحى وأسرعتم لإشراك الأمة فى حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نوّاب عن الأمّة تسنّ القوانين.. فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وقد سأله شاه إيران غاضبًا: «أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين؟!».

فردّ الأفغانى: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأثبت مما هى الآن. لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمّة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكًا عاش بدون أمّة ورعية؟».

وفى لقاءاته بالسطان عبدالحميد، كان جمال الدين يحثّه على فتح الأبواب من حوله وتوثيق علاقته المباشرة بالناس ويوضّح له الصلة الوثيقة بين الشورى والقرآن وحكمة تنظيم أمور البلاد على أساس دستورى ثابت:

«ولا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشد لمسلمين ميسورًا وجمع شتات الممالكى الإسلامية تحت لواء سطان عادل همام، مثل الفاتح أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم، غير عسير..».

وشرح السبب الثانى الذى كان يراه لا يقل فى تأثيره عن الأول بأن جعلت القسطنطينية عاصمة للدولة، وهى أرض فُتحت حديثًا وليست فى مركز الدولة، و«لأن المستعمرة مهما عظم موقها وطاب هواؤها، لا يصح أن تُتّخذ قاعدة أو عاصمة للملك، لأسباب أهمها: أن المستعمرة كالثوب العارية، قابل للاسترداد، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها إلا من ضعف السلطان فى عواصمها، ومنها، بعد المستعمرة، على الغالب عن مجموع القوّة وإحاطتها بأعداء الملك وأعوانه..».

الرؤية السياسية

ومع إدراكه لفوات الأوان فى إصلاح ما سبق من أخطاء، إلا أنه كان يملك رؤية لتغيير واقع الحال، وكانت رؤيته تعتمد على فهمه التاريخى الواقعى والاجتماعى لبلاد المسلمين، وقد ذكر فى تأملاته التى أملاها على المخزومى أنه اقترح على السلطان عبدالحميد مباشرة، أن يعيد التشكيل الإدارى للدولة العثمانية من ولايات إلى خديويات، بحيث يصبح العراق وشمال الشام خديوية، والمثلث الضام لدمشق وبيروت حتى القدس خديوية، والحجاز خديوية أخرى..إلخ.بحيث تتمتع هذه المناطق بما يشبه الإداراة الذاتية كما كانت الأمور فى مصر قبل الاحتلال البريطانى. وكان الأفغانى يرى أن هذا الوضع سينعش الأوضاع فى أجزاء الدولة ويجعلها أكثر قدرة على التحرك والنهوض وأن ذلك فى النهاية قد يدفع بإيران وأفغانستان إلى اللحاق بالاتحادية الإسلامية الناهضة.

ولكن عبدالحميد ـ كما يذكر الأفغانى ـ رفض الفكرة وأبدى عدم قناعته بها.

لا يمكننا ـ على الإطلاق ـ أن نقول إن الأفغانى عاش حياة، وترك رؤية، صائبتين بلا أخطاء، فقد كان مثله مثل كل عظام التاريخ، أخذ قيمته من أن عموم مسيرته ورؤيته كانت صحيحة إلى حدّ كبير، وأنه حاول حتى الرمق الأخير أن يحقّق ما آمن به.

لقد فهم الأفغانى جوهر الغرب الاستعارى فقاتل ضده بصلابة، فى الهند ومصر وإستنبول وإيران ومع الحركة المهدية فى السودان، وأدرک أهمية وحدة الأمة من جديد فحمل راية الوحدة فى كل قطر حلّ به وأمام كل حاكم التقاه.

وأدرک سرّ التخلف والتهاوى فى العالم الأسلامى; ولذا فقد كان نقديًا متقدمًا وحضاريًا مبدعًا. كان بلا شک مدافعًا صلبًا عن الحرية وعن دور الشعوب فى إدارة شئونها.

أستاذ الرواد

ويستطيع الباحث اليوم أن ينظر إلى القرن الأخير من تاريخ أمتنا فيجد أن جيلا بأكمله من روّاد النهضة الإسلامية الحديثة من محمد عبده إلى عبدالعزيز جاويش وعبدالله النديم ومصطفى كامل كانوا جميعًا من تلاميذه، وأن الثورة العرابية فى مصر و ثورة الدستور فى إيران كانتا أثرًا من آثاره، بل إننا نستطيع القول إن النهضة الإسلامية المعاصرة، من إيران إلى مصر، تنتمى جميعها إلى الأفغانى انتماءً شرعيًا.

وفى أوراقه التى وجدت بعد وفاته بسنين عديدة، كشفت بعض القصائد الشعرية التى كتبها جمال الدين ولم يهتم بنشرها فى حياته وفى إحداها يقول:

«طغاة إيران يحرقون
منى الجسد والروح
سأحزم أمتعتى وأرحل
صوب أرض تركيا
أرحل مرهقًا حزينًا وشقيًا
طالبًا العدل
فى محكمة السلطان
فإن لم يخفف السلطان
عن قلبى المثقل
فسوف أرحل
طالبًا العدل
فى محكمة الله».

وقد مات أو استشهد السيد جمال الدين وحيدًا فى إستنبول مع نهاية القرن التاسع عشر،تعيسًا بائسًا وكأنه ينظر إلى النهاية الآتية. كانت صرخاته أكبر من أن يستجيب لها عصره ومعاصروه.. فذهب، وبعده بسنوت قليلة كانت الدولة العثمانية كلّها تنهار وتذهب، وتنتهى بنهايتها مرحلة تاريخية بأكملها، وليحتدم الصراع داخل الأمة بين عشرات المتناقضات وهى تتجهز للمرحلة المقبلة.

***

الافتراء

هكذا كان السيد الأفغانى: رجل الصحوة الإسلامية، فى كل مكان يزرعها وفى كل قلب، له من كل حادثة عبرة، ومن كل وقت منطلق، وفى كل ساحة صراع مرير ضد عتاة الأرض وطواغيث البشر، وكل من تجلى فيهم الكبر والاعتداء.

لقد ركّز السيد الشهيد على محور المشكلة التى كانت الأمة تعانيها وتئن من آثارها، وما كان هذا المحور إلا تشكيلا من عنصرين وربما كان أحدهما عاملا فى خلق الآخر:

هذان العنصران هما التحريف فى التصوّر، والميوعة فى الإحساس. وفى هاتين النقطتين كمن سر الداء العضال لهذه الأمة مما أورثها ضعفًا هائلا فى الثقة بالنفس، وتمييعًا فظيعًا فى المواقف، وهزيمة نفسية أمام الغزو المعادى.

ومن هنا انطلق رحمه الله ليعيد للأمة تصوّرها الصحيح عن العقيدة، وعن تلاحم العقيدة مع العمل، ويحرك فيها إحساس الصحوة المتفاعل مع العقيدة والمنطلق على أساسها.

وتكفى نظرة سريعة على أقواله وأفعاله وكتاباته وخططه لنحكم بالتالى على الرجل بأنه كان مسخّرًا حياته للقضاء على محور الداء فى هذه الأمة، واقفًا نفسه لتطويق آثار الداء عاملا على التوعية المطلوبة بهه الآثار.

وفى هذه السبيل نسى السيد كل انتساب قومى أو عرقى أو نَسَبى أو أرضى ليحقق امتداده العالمى، وثار على التقاليد البالية التى منعت رجل العلم الدينى من الخوض فى غمار السياسة لينغمس كليا فى عالمها باعتبارها أحد الميادين الرئيسية التى يجب أن يجاهد فيها العلماء.

وراح يعلنها بالتالى دعوة كريمة، وصرخه مدويّة تدعو إلى الإصلاح والوحدة، وهما مفهومان يتلاحمان فى شخصيته وسيرته ودعوته العالمية.

فإذا انضم لكل هذا الوعى الإخلاص فإن من الطبيعى أن يتبعه التفانى والتضحية ونسيان الراحة، وكل ما يمتّ إليها، وحينئذ يأتى النصر الإلهى المؤزر لعباده الصالحين.

وهكذا كان لأمر، وسرت النيران لتعصف بالعروش فى إيران وتركيا ومصر وهكذا تساقطت العروش الكرتونية التى حملت فى أمخاخها العمالة والاستكبار، ومشت دعوة جمال الدين فى الأفئدة الحرة لتصوغ مصلحين من أمثال محمد عبده هذا الرجل العظيم الذى خلد أستاذه فى كتاباته وأعماله معًا.

***

ومضى الزعيم المسلم إلى ربّه بعد أن غرس روح الصحوة فى مجمل الحياة الإسلامية لتتفرّع بعد ذلك بما يحقق أهدافه السامية.

وظن الاستعمار أنه مات وماتت معه أفكاره، وربما ظن أنه يستطيع أن يسخّر شخصيته لتعظية بعض عملياته هو، راح يزرع عملاءه هنا وهناك آمنًا.

إلا أن فوجىء بعد مدة بالعملاق الإسلامى يتحرّك فيهزّ الأرض تحت أقدام العملاء بل وينطلق من أرض كان يعتبرها جزيرة الأمان، من إيران، فإذا بأكبر قلعة استعمارية تهتز، وأعتى متكبر يسقط بكل حقارة فى قمامة التاريخ.

وقد لاحظ أن ثورة إيران تحمل ملامح واضحة تتشابه مع ملامح شخصية الأفغانى ولكن بشكل أروع وأجلى وأبعد تأثيراً.

إلا أنّه بعد أن استعاد صوابه، راح يخطط لضرب الثورة فى الصميم، ومذ فشلت مخططاته لضرب الثورة راح يضرب تأثيرها ويحاول الفصل بينها وبين جماهيرها بشتى الأساليب التشويهية.

وكان ضرب الأفغانى الثائر جزءًا من الخطة لتحقيق الأهداف الاستعمارية وذلك على يد العملاء والرجعيين والمغفلين والمتعصبين.

وعدنا نسمع عن الرجل كل التهم تكال كيلا حتى ولو كانت فى إطار ما يسمى بالتحقيقات العلمية الموضوعية، فإذا بالأفغانى البطل المتفانى يتحوّل إلى بابى، رافضى، بهائى، ماسونى، رجعى، قومى، مهادن للعملاء يحب الشهرة، والمغامرة، بل راحت تتهم الشيخ محمد عبده بأنه كان يعلم الكثير عن أستاذه إلا أنّه أخفاه تقية!!

وهكذا نسيت كل مواقفه الرائعة فى إيقاظ الشعوب والأمة الإسلامية وأعرض هؤلاء عن الشهادات والأوسمة الحقيقية التى حملتها هذه الشخصية الرائعة، وعن الآثار العلمية والسياسية والحماسية التى تركها نورًا يضىء الدرب للأجيال، وعن الزهد الذى طبع مجمل حياته.

كل هذه الحقائق التى لا ريْب فيها نسيت فى سبيل تحقيق تلك المآرب الرخيصة.

قصة الحملة المسعورة

أما كيف بدأت الحملة لتشويه صورة الأفغانى وكيف جرى الإعداد لها، فهو ما كشفته مصادرنا من خلال وثيقة نشرتها مجلة «الشهيد» الإيرانية نوردها مع بعض التصرف:

«إنه قرار المخابرات الأمريكية.. والهدف (إسقاط شخصية المجاهد جمال الدين الحسينى)، المعروف بالأفغانى.. وبالتالى أسقاط اعتبار الحركة الإسلامية المتصاعدة التى يعتبر اسيد المجاهد أحد رموزها وملهميها..».

ومع اعتقادنا أن السيد المجاهد يعيش فى قلوب الناس بجهاده وتاريخه الرائع.. إلا أننا لا نخوض فى بعض تفاصيل هذه الحملة، لكى تنكشف لنا وبصورة أوضح حقيقة دور الأنظمة الحاقدة على الإسلام وقادته المخلصين ونتركه لمجال آخر...بعد تنامى الوعى الإسلامى واتساع الصحوة الإسلامية فى العالم، أخذت أقلام جاهلة، تصبّ كل جهودها فى إطار كيل التهم والافتراءات على ماضى الشخصية الإسلامية الفذّة، الشهيد السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى.

حينما تقرأ ما جاء فى كتاب نيكى كدى الأمريكية،ترى أنهما تحاولان أن تقولا للمسلمين إن السيد جمال الدين الحسينى لم يكن إلا ألعوبة بيد السلاطين والملوك.. ولم يكن يملك من أمره وإرادته شيئًا..

فى الواقع أن السيد الحسينى كانت له عدة علاقات مع هؤلاء السلاطين، ولكن علاقته كانت فى نطاق إسداد النصح لهؤلاء السلاطين.. وحينما يصدر منهم الانحراف يقف بوجوههم ليقوّم ذلك الانحراف، وعندما لا يذعن السلطان لذلك يأخذ السيد الحسينى فى لومه، وبعض هذه العلاقات كان السيد الحسينى يرتجى من ورائها خدمة الإسلام كطلبه من المسلمين مؤازرة سلطان الأستانة فى تركيا ضد المؤامرات الإنجليزية، إذ ما دام الخطر قادمًا من الخارج وعلى يد قوات ترمى من احتلالها للدول الإسلامية ضرب الإسلام، فإن الموقف يتطلب كما كان يرى السيد الحسينى أن لا يترك المسلمون نصرة سلطان الأستانة لئلا تقع الأمة الإسلامية أسيرة الاستعمار.

ولم يكن عمل السيد هذا بمنقصة، إنما كان الأسلام فى خطر، وهذا الموقف يذكّرنا بموقف المرجعية الإسلامية فى العراق عندما طلبت من المسلمين أن ينضموا ضمن صفوف القوات المسلحة العثمانية ضد قوات الغزو الاستعمارى البريطانى فالخطر على الإسلام كان داهمًا..

أما عمله السياسى الجاد ضد الاستعمار البريطانى فى مصر فقد أرادت كاتبة إيرانية وكاتبة أمريكية، استندتا على كتاب ما سمى بالوثائق وبحث لكاتب مصرى تشويهه:

فالكاتبتان تقولان: «يخطىء المرء إذا أراد أن ينسب إلى جمال الدين مذهبًا، وأنّ فيه عقيدة متجانسة...»

... «وأهم من كل هذا أنه بنى لنفسه وبنيت له فى مصر أسطورة حتى غدا الناس فى مصر يقدّسونه دون أن يقرءوله، ويضعونه فوق مستوى النقد..».

فمن الضرورى أن نشير إلى أن السيد الحسينى قد أعار نفسه ووقته وعقله لله وللشعب المصرى، إذ لم يرتح له بال وهو يحس بأقدام الاستعمار البريطانى توغل فى صدره، فانطلق يحرّض الشعب المصرى المسلم على الثورة والانتفاضة ضد الاستعمار البريطانى فراح ينادى فى أهل مصر.. «فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يُبق لكم شيئًا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحقّ بها وطالما دافعتم عنها فى الأيام السابقة..».

وفى المقال الافتتاحى، لأول عدد من جريدة (العروة الوثقى)، يصوّر جمال الدين حادث الاحتلال البريطانى لمصر على أنه كارثة فى العالم الإسلامى، وقد أهاب المسلمين ـ بباعث من دينهم ـ أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال.

يقول:

«.. إن الخطر الذى ألمَّ بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وانكلمت به قلوبهم، ولا تزال الأمة تستفزّهم ما دام الجرح نقارا، وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم المليئة أقوى من رابطة الجنس واللغة، ومادام القرآن يتلى بينهم، وفى آياته ما لا يذهب على أفهام قارئه فلن يستطيع الدهر أن يذلَّهم..».

وما يُضحك أن يتهم كاتب السيد الحسينى باستلام أموال من الحكومة الفرنسية؟! فإذا كان السيد غايته المال، لما احتاج لأن يجهد نفسه ويدخل فى طرق وعرة وشائكة من أجل خدمة المسلمين، ولما احتاج إلى أن يعرّض نفسه للهجرة أو الإهانة من قبل الأنظمة الحاكمة كما حدث له فى إيران، عندما هاجمه خمسمائة من المسلحين وأخذوه جرًا على الرغم من مرضه الشديد، حتى قال جمال الدين الحسينى فى ذلك:

«كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب، العزيز الحسب، العظيم الجاه، العالى المنزلة فى دينه وشرفه وعقله، ورغبته فى الخير؟! كيف يرجوه الشاه أن يأتى بلده ويعده أن ينفذ إصلاحه، ويعلى كلمته، ثم يعامله معاملة العبد يطرد، والذليل يصفع، والحقير يهان؟!».

ولكى تقول الهجمة الشرسة ضد السيد الحسينى بأنه ماسونى، فإن كاتب البحث لكى لا يربط الحديث به يذهب إلى أحد الكتّاب الموجودين الذى أخذ عن كتاب (مجموعة وثائق..) فيقتبس منه العبارة التالية:

«وفى مصر أيضًا جرّته ـ الحسينى ـ تطورات الأحداث وتغلغل الأجانب فى آخر عصر إسماعيل إلى النزول فى معمعتها فنشط فى المحافل الماسونية..».

قبل كل شىء لا بد أن نعرف ماذا تعنى الماسونية؟

الماسونية ترتكز على ثلاث ركائز كما يزعم أصحابها، والركائز هى: حرية، مساواة، إخاء، ولكن فى الواقع هى بعيدة عن ذلك، و«الجمعيات الماسونية» أو التنظيم الماسونى، هو من أدقّ وأعقد الأساليب الخفية المستترة فى استقطاب حركة المجتمعات وتوجيهها.

وقد عرف عن التنظيمات الماسونية أنها ضد الإسلام الحنيف، وضد كل شىء يتّصف بالخير، وما شعاراتهم إلا لذرّ الرماد فى العيون، وهى يافطة يرفعونها لإغواء من يروم الخير والسعادة البشَرية، وأيضًا يافطة لتشويش الرؤية والبصيرة على الآخرين.

نعم إن السيد تعرّف على الماسونية حينما كانت تتلبس لباس الخير والإصلاح، وعندما لمس من أول وهلة أنها معادية لمصالح الشعب المصرى المسلم، أخذ يعرّيها ويوضّح للشعب المصرى المسلم حقيقتها الهدّامة المناصرة للنظام الحاكم، فيذكر السيد الحسينى بهذا الخصوص ما يلى:

«أول ما شوّقنى للعمل فى (بناية الأمراء) عنوان كبير خطير: حرية، مساواة، إخاء، وأن غرضها: (منفعة الإنسان، سعى وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق) ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيّل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتى المحافل الماسونية! إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون، وفيها كل بناء حرّ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم

القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة».

هذه العبارات الصادقة التى توضّح حقيقة السيد جمال الحسينى وموقفه الحازم من المحافل الماسونية تتغافى عنها الأقلام المحمومة، وما همها، سوى قذف السيد بأباطيل محبوكة.

إلا أن كل المحاولات لتشويه سيرة جمال الدين باءت بالفشل، ولم تنطل الحيلة على المفكرين الواعين وبقى الأفغانى بطلا عظيمًا تفتخر به الأمة وتعتزّ، بعد أن قدّم لها أروع الأمثال فى الإيمان والوعى والجهاد والتضحية والإخلاص.

قال تعالى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ ويَأْبَى اللّهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ)[التوبة: ٣٢].

***

و إنّنا كما أشرنا أولا، وفاءً لذكرى الرجل الكبير واحتفالا بالذكرى المئوية لإصدار مجلة «العروة الوثقى» من باريس ـ نقدّم المجموعة الكاملة لهذه المجلة للقرّاء فى العالم الإسلامى والعربى. سائلين المولى العلى القدير أن يبعث فى جماهيرنا الإسلامية صحوة راشدة وتحسسًا للأهداف الكبرى وشوقًا صنّاعًا للغد الأمثل.

والله الموفق

سيد هادى خسروشاهى

محرم ١۴٠۶ هـ أكتوبر ١٩٨٥ م/روما ـ إيطاليا)[١٣]

١٣. ملخص من المقدمة التى نشرت فى الطبعة الأولى الأوروپية

العروة الوُثقى

للسيد جمال الدين الأفغانى

والشيخ محمد عبده

الطبعة الأولى ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا صدرت الجريدة[١٤]

﴿رَبَّنا عَلَيْک تَوَكَّلْنا وإِلَيْک أَنَبْنا وإِلَيْک الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]

هذا ما تمدّه العناية الإلهية من قول الحق، متعلقًا بأحوال الشرق، على الله المتّكل فى نجاح العمل.

خفيت مذاهب الطامعين أزمانًا ثم ظهرت، بدأت على طريق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم[١٥] حتى أذهلوهم عن[١٦] أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية.

ذهب أقوام إلى ما يسوّله الوهم، ويغرى به شيطان الخيال، فظنوا أنّ القوّة الآلية و إنْ قلّ عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتّفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاک الجم الغفير، فى النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإنّ تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمّة عظيمة ونسيت تلک العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز فى زمن من الأزمان إمحاء أمّة أو ملّة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال.

والذى يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الإنسانى من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أيقظتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها، هرعت إلى استبقاء الموجود و رد المفقود، ولم يجد بدا من طلب النجاة من أى سبيل، وعند ذلک تحس بقوتها الحقيقية وهى ما تكون بالتئام أفرادها،

والتحام آحادها، وإن الإلهام الإلهى والإحساس الفطرى والتعليم الشرعى ترشدها إلى أن لاحاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها.

إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت، إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حدّ يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كرّت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشادًا.

---

١٤. صدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م، وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عددًا، وصدر العدد الأخير منها فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ وانتهت بسبب محاربة الإنجليز لها.

١٥. فى الأصل: لبابهم.

١٦. فى الأصل: على.

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلّة الخطأ يلهمها تدارک ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة، وإن الحركة التى تنبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيّم عليها، ومدبر لسيرها، لا يكفى فى توقيف سريانها، أو محو آثارها، قهر ذاک القيم وإهلاک ذاک المدبر، فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيّم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علّته ورفع أسبابه.

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكلفها بزائد عمّا كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به. لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبًا تقرب بعضها من بعض فعند ذلک تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلک بغريب.

إن مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزّب للجنس والمذهب وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشدّ من دعوتها إليه للاشتراک فى طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام. كلٌ يطلب خلاصًا ويبتغى نجاة وينتحل لذلک من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والفن، وإن العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلى، كان هذا أمرًا ينتظره المستبصر وإن عمى عنه الطامع وليس فى الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أبنائه، بل ما يجرى به القضاء الإلهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرک المتغلب منهم نكايته، خصوصًا فى المسلمين منهم، فمنهم ملوک أنزلوا عن عروشهم جورًا وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقامًا، وأسود تحوّلت أنعامًا، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسّها الضرر من إفراط الطامعين فى أطماعهم خصوصًا من جرّاء الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها. جلبوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها وشدّوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلک وسيلة لنيل المطمع; فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب، بل طوفان المطائب، على تلک البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهمّوا بما لم ينالوا.

لم تكد تخمد تلک الحركة فى بادىء النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفُتِح باب كان مسدودًا وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى فى نفوس المسلمين، بل هى بقية آمالهم ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة

الجديدة، وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها،نعم إنّهم غرسوا غرسًا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلا ويطعمون منه زقومًا. لا جرم أن هذه هى العواقب التى لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه ويغلغل فى حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

غير أنهم ركبوا الشطط وغرّهم ما وجدوا من تفرّق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحوّل عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين. فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عمّ الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعزّ عليهم الصبر فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم.

إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إنّ مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية، إن الخطر الذى ألمَّ بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولا تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارًا. وما هذا بغريب على المسلمين، فإنّ رابطتهم المليّة أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم. إن الفجيعة بمصر حرّكت أشجانًا كانت كامنة وجددت أحزانًا لم تكن فى الحسبان وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل أن يصير التنفس زفيرًا بل نفيرًا عامًا بل يكون صاخة تمزّق مسامع من أصمه الطمع.

إنّ أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته إلا المداهاة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنّة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع من ممالكهم ومثبّت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلّص الحكومات من غوائل العصيان وواقى مصالح المغلوبين فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما لا يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر وكر النظر. وأن يتحاشى العنف مع أمّة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته وإن المغيظ لا يبالى فى الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر، إن مسه الضر.

إلا أن غشية التهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرت أسماعهم من حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر والكرير[١٧] الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم المسترسلين فى جفوتهم.

إنّ الرزايا الأخيرة التى حلّت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحوّلت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدّت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهّد لهم الحوادث سبيلا حسنًا يسلكونه لوقاية الدين والشرف. وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور.

تألفت عصبات خير من أولئک العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصًا البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع لا ينون فى السعى ولا يقصرون فى الجهد ولو أفضى بهم ذلک إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته.

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوروپا، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام يجتمع إليه الشرقى والغربى ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب إلى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق. طلبوا عدّة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى وأن تكون فى مدينة حرّة كمدينة پاريس[١٨] ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيها للغافل وتذكيرًا للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشئ تلک الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبّى رغبتهم، بل نادى حقا واجبًا عليه لدينه ووطنه وكلّف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الإجابة، حمل الثانى على الامتثال، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال.

الجريدة ومنهجها

---

١٧. الكرير: صوت فى الصدر كصوت المختنق.

١٨. يقصد پاريس عام ١٨٨٤!!

سيأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبًا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارک ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.

ويستتبع ذلک البحث فى أصول الأسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم، إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت[١٩] وضل المرشد، حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة.

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالک الرشد وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء دائهم، وظنوا أن زمان التدارک قد فات وأن العناية بلغت حدّها.

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وإن تخيّل تلک الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار على المطلوب وهو تحت الجنح ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة.

وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسک ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعزّ دولة أوروبية وأمنعها ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوک المسالک التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلک، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرًا أعجزها وأعوزها.

وتنبه بأن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافًا ينم عمّا وراءه وتنقب عن المسالک الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجر الغفلات.

ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون، ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت.

وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم، وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

---

١٩. الخريت: الدليل الحاذق بطرق الأرض.

ومع كل هذا، فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا ولا تنجد إذ غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانًا بدون مقابل ليتداولها، الأمير والحقير والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق.

الجنسية والدّيانة الإسلامية

إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلىّ النظر ودقيقه وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم، وإن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسّهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبيه منه لطلب السبب ولا بحث فى علة هذا الوجدان، حتى ظنّ كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم ما نراه فى حال طفل ولد فى أمّة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمّة أخرى وربى فيها إلى أن عقل ولم يذكر له مولده، فإنّا لا نرى فى طبعه ميلا إليه بل يكون خالى الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل إليه والطبيعى لا يتغيّر.

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعى ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات. فإن الإنسان فى أى أرض له حاجات جمّة و فى أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية، وسعة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان; فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر. فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابًا طوالا إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة، حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعوا أممًا، كالهندى والإنجليزى والروسى والتركمانى ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرًا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر، ثم يجاوزوا فى ذلك حدّ الضرورة كما هى عادة الإنسان فى أطواره، فذهبوا إلى حدّ أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه، علمًا بأنه لا بدّ أن يكون جائرًا إذا حكم ولئن عدل فإن قبول حكمه ذلّ تحسّ به النفس وينفعل له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية، تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام، وهو مبدأ الكل وقهّار السموات والأرض، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهمًا للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين. فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم فى التطامن لما أمر به، اطمأنت فى حفظ

الحق ودفع الشرّ إلى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها فمُحى أثرها من النفوس والحكم لله العلى الكبير.

هذا هو السرّ فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبتهم الإسلامية، فإن المتدين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده، يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة إلى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد.

لأن الدين الإسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى، بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها، وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها، حتى لا يكون القابض على زمامها لا من أشد الناس خضوعًا لها ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوّة بدنية وثروة مالية، وإنما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة. فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدّسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم، إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها.

وكل فخار تكسبه الأنساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرًا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة، فهى ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا من دعا إلى عصبية وليس منّا من قاتل على عصبية وليس منّا من مات على عصبية» والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى ـ اتباع الشريعة ـ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: ١٣]، ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له فى جنسه ولا امتياز له فى قبيله ولا ورث المُلك عن آبائه ولا طلبه بشىء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة ملك الوازعين فى المسلمين كان يسديها إليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية واهتدائهم بهديها وتجردها عن الاعتلاء الشخصى، وكلما أراد الوازع أن يختصّ نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته ورفاهة معيشته، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذاك الوازع.

هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذاترى العربى لا ينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وإن المسلم فى تبدّل

حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظًا لشأن الشريعة ذاهبًا مذاهبها، نعم إذا نبا فى سيره عنها وجار فى حكمه عمّا نصّت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقه، انصدعت منه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس وأصبح وإن كان وطنيا فيهم أشنع حالا من الأجنبى عنهم.

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها.

ولو أن حاكمًا صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة، لأمكنه أن يجوز بسطة فى الملك و عظمة فى السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين، ولا يتجشّم فى ذلك أتعابًا ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية... ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى فى الديانة الإسلامية القويمة، ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة. أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الإسلامى لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكن مع ذل أتى بما فيه مصلحة العباد فى دنياهم وما يكسبهم السعادة فى الدنيا، والنعيم فى الآخرة وهو المعبّر عنه فى الاصطلاح الشرعى بسعادة الدارين، وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى إن بعضًا من المسلمين على حكم الندرة يعزّ عليهم الصبر ويضيق منهم الصدرلجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق، فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه، حتى اذا أحسّ بالألم ورجع واسترجع، وإن بعض ما يطرأ على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق، إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القومية التى بنيت عليها الديانة الإسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين، فإن منابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشدّ ما يكون ضررهما بالسلطة العليا، فإذا رجع الوازعون فى الإسلام إلى قواعد شرعهم وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة فى الملك وألحقهم فى العزّة بالراشدين أئمة الدين وفّقنا الله للسداد، وهدانا طريق الرشاد.

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها[٢٠]

(سُنَّةَ اللّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً)[الأحزاب: ٦٢]

٢٠. أكثر عناوين المقالات مأخوذة عن تاريخ الإمام (رحمه الله) ـ طبعة مجلة (المنار) الإسلامية.

أرأيت أمّة من الأمم لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم انشق عنها عماء العدم فإذا هى بحميۀ كل واحد منها كون بديع النظام قوى الأركان شديد البنيان، عليها سياج من شدّۀ البأس ويحيطها سور من منعۀ الهمم تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدى مديريها عقد المشكلات. نمت فيها أفنان العزۀ بعدما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها ونفذت منها الشوكۀ وعلت لها الكلمۀ وكملت القوۀ، فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلک لسابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادۀ إلا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهى قليلۀ العدد كثيرۀ الساحات كأنها للعالم روح مدبّر وهو لها بدن عامل.

وبعد هذا كلّه وهى بناؤها وانتثر منظومها وتفرّقت فيها الأهواء وانشقّت العصى وتبدّد ما كان مجتمعا وانحل ما كان منعقدا وانقصمت عُرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عمّا يحفظ وجودها، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح فى مناظره بارقۀ من حقوقها الكليۀ والجزئيۀ وهو فى غيبۀ عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدى الملتحمين معه بلحمۀ الأمۀ، وإنه أحوج إلى شدّ عضدهم من تقويۀ ساعده وإلى توفير خيرهم من تنميۀ رزقه وكأنه بهذه الغيبۀ فى سبات يخيله الناظر إليه صحوا، وذبول يظنه المغرور زهوًا وأخذ القنوط بآمال أولئک المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعۀ التهم والرضا بكل حال، ولئن تنبّه خاطر للحق فى خيال أحدهم أو استفزّه داع من قلبه إلى ما يكسب ملّته شرفًا أو يعيد إليها مجدًا، عده هوسا وهذيانًا أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنيۀ، أو حسب أنّه لو أجاب داعى الذمۀ لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكۀ أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس فتغلّ يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعى ويحسّ بعد ذلک بغايۀ العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درک ما أتى أسلافه من قبل، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئک الآباء الذين تركوه خليفۀ على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمۀ حدا يشرف بها على الهلاک ويطرحها على فراش الموت فريسۀ لكل عاد وطعمۀ لكل طاعم.

نعم رأيت كثيرًا من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت، ولكن أليسَ لكل علۀ دواء؟ بلى.

وا أسفا ما أصعب الداء وما أعزّ الدواء وما أقلّ العارفين بطرق العلاج؟! كيف يمكن جمع الكلمۀ بعد افتراقها وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه..؟! أستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشدّ أعضائه اتّصالا به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه. نعم ربما التفت كل إلى ما هو فى فطرۀ كل حىّ من ملاحظۀ حفظ حياته بمادۀ غذائه وهو لا يدرى من أىّ وجه يحصلها ولا بأيّۀ طريقۀ يكون فى أمن عليها، كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمنًا غير قصير إلى معاليها، هل من السهل ردّ التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوک سواه خصوصًا بعدما

استدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنّه على مقربة من الخطوة. كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقرٌ وفى ملامسه خدر، هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمّة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها، هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحّد آراءها المتخالفة بعدما تراكم جهل وران غين وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر، وأيم الله إنه لشىء عسير يعيى فى علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير.

هل يمكن تعيين الداء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه؟ إن كان المرض فى أمّة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصًا بعينه أن يختار له نوعًا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بيّنة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيراً من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها، كلا إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علّة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملّة طويلة الأجل وافرة العدد؟!، لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمّة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدّة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت. كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين، فإن أخطأ طالب إصلاحها فى اكتناه شىء مما ذكرنا تحوّل الدواء داء والوجود فناء.

فمن له حظ فى الكمال الإنسانى ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهى، لايجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها، وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علمًا أو عملا. نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شىء.

ظن قوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وأنها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق. كيف يصدق هذا الظن؟ وإنّا لو فرضنا أن كتّاب الجرائد لا يصدقون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزّه عن الأغراض، فبعدما غم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لا تجد لها قارئاً ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يُراد منه لضيق فى التصوّر أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافًا. على أن الهمة إذا كانت فى درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث، إن هذا وحقك لعزيز.

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرّق أهوائها وأخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، بل لمن كان خاضعًا لسيادتها راضخًا لأحكامها، مع هذا كلّه يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعمّ المعارف جميع الأفراد فى زمن قريب، ومتى عمّت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوّة. وما أبعد ما يظنون، فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانًا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبًا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة. وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

فإن قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر.

على أنّا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدّة من الزمان تكفى لبثّ تلك العلوم فى بعض الأفراد والاستزادة منها شيئًا فشيئًا، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرّج يفيدها فائدة جوهورية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بإرشاد الباقى من أبناء أمته؟ واعجبًا كيف يكون هذا وإن الأمة فى بُعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها؟! وكيف بذرت بذورها؟! وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟! وبأى ماء سقيت وبأىّ تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وإن وصل إليها طرف من ذلك فإنما يكون ظاهرًا من القول لإنباء عن الحقيقة؟! فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفكار هم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم؟!

لعلّ الأقرب أن ناقلى تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم، يكونون بين أمّتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فسادًا.

ماذا يكون من أولئک الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على ما بها أضعافًا؟! وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نَقَلة وحَمَلة.

فهؤلاء الصادقون إلا من وفّقه الله منهم بعنايته الإلهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض وينتهى به إلى التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام، إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبوابًا ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمّتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

شيّد العثمانيون والمصريون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدنًا وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى. هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدّموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة؟ وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت فى سبيلها، خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم؟

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية. أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد. ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسئر الماعون وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدّوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهات، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدع لأنف الأمّة يشوّه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها.

علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمّة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤمًا على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقى فى بعض رجال الأمّة بقية من الشمم أو

نزوع إلى معالى الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئک المقلدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلک بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم. أقول ولا أخشى لومًا لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلک الطلائع عندما تغلّب على بعض أراضيها الإنجليز لما بارحوها أبد الآبدين. فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالک والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم، ولهذا لو طرق الأجانب أرضًا لأيّة أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

***

فما الحيلة وما الوسلية، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيّق والخطب شديد... أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرّک الأفكار الخامدة؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى، الرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منغضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللأهواء تحكم وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمّة والزمن قصير؟! ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم؟! بأىّ سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟! لا أطيل عليک بحثًا ولا أذهب بک فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرک إلى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل. أرسل فكرک إلى نشأة الأمّة التى خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوّة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة، وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها إنما هو دين قويم الأصول محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع إلى المحبة مزک للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منوّر للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها إنما يكون من طرح تلک الأصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها فى شىء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عمّا يرشد إليه الدين وعمّا أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه

إلا أسماء تذكر وبارات تقرأ، فتكون هذه المحدثات حجابًا بين الأمّة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمّة، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنسانى.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططًا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسًا ولا يكسبها إلا تعسًا.

هل تعجب أيّها القارئ من قولى إن الأصول الدينية الحقّة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية. إن عجبت فإن عجبى من عجبك أشد. هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتيان الدنايا والمنكرات حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقوّاها وهذبها ونوّر عقولها وقوّم أخلاقها وسدّد أحكامها، فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة الدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا وكل أمّة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوّتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها.

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الأقطار وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات وعلو المقاصد، هى التى هذّبت أخلاقهم، وقوّمت أفكارهم، وكفتهم عن معاطاة الرذائل، وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها، فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا فى آخر عدد إن شاء الله، وهو الموفق للصواب.

النصرانية والإسلام وأهلها

(إِنَّ فِى ذلِک لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ)[ق: ٣٧].

خلق الله الإنسان عالمًا صناعيا ويسّر له سبيل العمل لنفسه وهداه للإبداع والاختراع، وقدّر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركن وجوده، ودعامة بقائه، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة، وخشونة ورفاهة، وتبدّ وحضارة، صنيعة أعماله، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة أو قيامه على الماشية، وسرابيله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجًا أو خصفًا، وأكنانه ومساكنه ليس إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما يفتن فيه من دواعى ترفه ونعيمه إنما هى صور أعماله ومجالى أفكاره، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفّه للطبيعة ليستجديها نفسًا من حياة لشحت به عليه، بل دفعته إلى هاوية العدم، وهو فى صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يثقّفه وهاد يرشده، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته، يعمل ليعلم كيف يعمل، وليقتدر على أن يعمل، فصنعته أيضًا من صنعه، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل. هذا هو الإنسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقًا من النظر إلى أحواله النفسية من الإدراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضًا عالمًا صناعيا: شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه فى تربيته الأولى، وما يودع فى نفسه من حوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم، مرامى أفكاره، ومناهج تعقله، ومذاهب ميله، ومطامح رغباته ونزوعه إلى الأسرار الإلهية أو ركونه إلى البحث فى الخواص الطبيعية، وعنايته باكتشاف الحقيقة فى كل شىء، أو وقوفه عند بادىء الرأى فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية إنما هى ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون.

وأما هواء المولد والمربى ونوع المزاج، وشكل الدماغ وتركيب البدن، وسائر الغواشى الطبيعية فلا أثر له فى الأعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون فى الاستعداد والقابلية، على ضعف فى ذلك الأثر، فإن التربية وما ينطبع فى النفس من حوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع فى الطبع، نعم إن أفكارًا تتجدد، ومعقولات عن أخرى تتولد وصفات تسمو، وهممًا تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرّف الطبيعة لا من آثار الاكتساب، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعًا، فالإنسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى.

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمال البدنية، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان، إنما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمة حق فى الدين، ولا أظن منكرًا يجحدها:

إن الدين وضع إلهى، ومعلمه والداعى إليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مسكوب لمن يختصهم الله بالوحى، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ فى الأفئدة، وتصبغ النفوس بعقائدة وما يتبعها من الملكات والعادات، وتتمرن الأبدان

على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها، وكأنما الإنسان فى نشأته لوح صقيل، وأول ما يخط فيه رسم الدين، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده. وما يطرأ على النفوس من غيره، فإنما هو نادرشاذ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عمّا أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال.

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن الملّة المسيحية والملّة الإسلامية، وهو بحث طويل الذيل وإنما نأتى فيه على إجمال ينبئك عن تفصيل أن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية، ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر. ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد وهى فانية، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهى لله وحده، فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار، مع ملاحظة أن لكل خيال أثرًا فى الإرادة يتبعه حركة فى البدن على حسبه، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى، المنتسبين فى عقائدهم إليه، فإنهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها، ولا يقفون عند حدّ فى استيفاء لذاتها، ويسارعون إلى افتتاح الممالك، والتغلب على الأقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فنا جديدًا من فنون الحرب، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم فى بعض، ويصولون بها على غيرهم، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال، ويصرفون عقولهم فى إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها، وإن أصلو دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم، فضلا عن الالتفات إلى طلب غيرها.

الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقر أسورة من كتابها المنزل يحكم حكمًا لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بدّ أن يكونوا أول ملّة حربية فى العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة، وإتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرّ الأثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل فى آية (وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) [الأنفال: ٦٠]، أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبع بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها، والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلّب غيره عليه، ومن لاحظ أن الشرع الإسلامى حرّم المراهنة إلا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرّن عليها، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات،

إذ يراهم يتهاونون بالقوّة، ويتساهلون فى طلب لوازمها، وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها، ورضخوا لأحكامها، ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمترليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية. وكيف وجدت بندقية مارتين فى ديار الأولين، قبل وجودها عند الآخرين! وكيف أحكمت الحصون، ودرعت البواخر، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم، دون أهل الغلبة والحرب!

لمَ لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا؟! لمَ لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة؟! هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المتمسكين بعراهما؟ هل نبذت كل ملّة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى، واقتفاء سيرة يوشع بن نون؟ هل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تُتلى على منابر المسلمين؟ أو ألقى شىء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل دروسهم؟ هل تبدلت سنّة الله فى الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح؟ أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال؟ أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين؟ أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس؟ وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون فى الأنساب الدانية. أينسب هذا إلى اختلاف الإقطار؟ وكثير من القبيلين يتشابهون فى طبائع البلدان، ويتجاورون فى مواقع الأمكنة. ألم يصدر من المسلمين وهم فى شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار، وأدهشت الألباب؟! ألم يكن منهم مثل فارس والعرب ولترک الذين دوّخو الممالک واستووا على كرسى السيادة فيها؟! كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع، فزع لها المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها. ذكر ملكام سرجم «إنجليزى» فى تاريخ فارس، أن محموداً القزنونى كان يحارب وثنيّى الهند بالمدافع، وكانت هى الأسباب فى انهزامهم على يديه سنة ۴۰۰ من الهجرة، وما كان المسيحيون لذلک العهد يعرفون شيئًا منها.

فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملّة المسيحية فقدّمها إلى ما لم يكن فى قواعد دينها، وأى صدمة من صدماته دفعت فى صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسائل لما هو أول مفروض فى دينهم؟ مقام للحيرة وموضع للعجب! ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب، نعم وتفصيله يطول، ولكن نجمل على ما شرطنا أن الدين المسيحى إنما امتد ظله وعمّت دعوته فى الممالک الأوروپية من أبناء الرومانيين، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الأولى، وجاء الدين المسيحى إليهم مسالمًا لعوائدهم ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الإقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة، فكان كالطراز على مطارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم، ومع هذا فإن صحف الإنجيل

الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين، ثم إن الأحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع، وسنوا محاربة الصليب، ودعوا إليها دعوة الدين، التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية، وجرت منها مجرى الأصول، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسحيين فى أوروبا، وافترقوا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضرامًا، وتوسعوا فى فنون كثيرة، وانفسح لهم مجال الفكر فيها، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون.

أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كمال حربى حظا، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة، وعلوم النزال والمكافحة، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه، وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر، ولا تثبتها الحقائق، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً فى الهمم وفتورًا فى العزائم. وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصًا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقّة ومبانيه الثابتة التى دعا إليها النبى وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة فى دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة، لعلّ هذا هو العلّة فى وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم وهو ما نسأل الله السلامة منه.

إلا أن هذه العوارض التى غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفًا، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع. والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوّة المزاج. وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم، ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة، فلابد يومًا أن يسطع ضياؤه ويقشع سحاب الأغيام، ومادام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق. وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم، ومغالبة المعتدين، وطلب المنعة من كل سبيل، لا يعين لها وجهًا، ولا يخصص لها طريقًا، فإننا لا نرتاب فى عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم، فيتقدّمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظًا لحقوقهم، وضنا بأنفسهم عن الذل وملّتهم عن الضياع وإلى الله تصير الأمور.

انحطاط المسلمين وسكونهم
وسَبَب ذلک

(وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا) [آل عمران: ١٠٣]

إن للمسلمين شدّه فی دينهم وقوة فی إيمانهم وثباتًا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل، وإن فی عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ فی نفوسهم أن فی الإيمان بالله وما جاء به نبيّهم صلى اله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشدّ مما يشفقون عليه من الموت والفناء. وهذه الحالة كما هی فی علمائهم متمكنة فی عامتهم، حتى لو سمع أی شخص منهم فی أی بقعة من بقاع الأرض عالمًا كان أو جاهلا أن واحدًا ممن وسم بسمة الإسلام فی أی قطر ومن أی جنس صبأ عن دينه، رأيت من يصل إليه هذا الخبر فی تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع. ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه فی دينه. ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فی تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئات من السنين لا يتمالک قبه من الاضطراب ودمه من الغليان. ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عندالله بالمحافظة على ما يدخل فی ولايتهم من البلدان. وكلهم مأمور بذلک لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فی الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فی سبيل الحماية وحفظ الولاية، بذل الأموال والأرواح وركوب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فی حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة فی طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حدلو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه. وهذه قواعد مثبتة فی الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فی كل زمان.

المسلمون يحثّ كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذی بقی له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فی هذه الأيام بعضهم فی غفلة عمّا يلمّ بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل (بلوچستان) كانوا يرون حركات الإنجليز فی (أفغانستان) على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولم تكن لهم نعرة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجليز فی بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون، وإن جنود الإنجليز تضرب فی الأراضی المصرية ذهابًا وإيابًا وتقتل وتفتک، ولاترى نجدة فی نفوس إخوانهم المشرفين

على مجارى دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم.

تمسک المسلمين بتلک العقائد وإحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها، مما يقتضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملا منه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كان هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها.

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشدّ التأثير، فكل مشهود يحدث فكرًا وكل فكر يكون له أثر فى داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار، ما دامت الأرواح فى الأجساد، وكل قبيل هو الآخر عماد.

إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند لعقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لو لا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، عن تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذًا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريًا مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيا. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلک الصلة ويؤكّدها، ووجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبة أو ألجأته ضرورة إلى ذلک ذهب أثر تلک الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات. وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض. إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعدّ فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لک السبب فى سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم، والعلّة فى تباطؤهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس فى عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عمّا يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضًا هجرًا غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها، لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمّن يبعد عنهم، والعالم الهندى فى

غفلة عن شئون العالم الأفغانى وهكذا، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر، أما فى هيئهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

كما كانت هذه الجفورة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين. أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى المشرق؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عمّ المسلمين حتى صحّ أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام. وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته.

كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه، فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم. كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القران الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: خلافة عباسية فى بغداد، وفاطمية فى مصر والمغرب، وأموية فى أطراف الأندلس، تفرّقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطّعت الوشائج بينهم بظهور چنكيزخان وأولاده وتيمور لنک وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرّق الشمل بالكليّة وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعًا، وانفرد كل بشأنه أو انصرف إلى ما يليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقًا كل فرقة تتبع داعيًا إما إلى ملک أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباک الوشيجة، وصار ما فى العقول منها صورًا ذهنية تحويها مخازن الخيال، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأرقاب لا يدعو إلى حركة لتدارک النازلة، ولا دفع الغائلة.

وكان من الواجب على العلماء قيامًا بحق الوراثة التى شُرفوا بها على لسان الشرع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطًا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتزّ أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعّاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معقد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شدّ أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتّبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل.

إلا أنّا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل، وإن التفتت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحّد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرّفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة، أو ما يخشى أن يمسها بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير.

***

سبات من له حق
وحراك مَنْ لا حق له

هذه اول أوروبا جميعًا ودولة فرنسا خصوصًا شاخصة الأبصار إلى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها فى القطر المصرى وأضر بتجارتها فيه، ولا تبدى حركة ولا يسمع لها صوت، إلا همس خفى فى الجرائد، والدولة العثمانية وهى شديدة الأزر قوية العضد بما لها من المكانة فى قلوب الهنديين، وكل إنجليزى قلبه بين أصابع الدولة العثمانية، وأحشاؤه مستقرة على أناملها، وفى نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال فى الأقطار المصرية، وسيادتها عليها كادت تكون اسمًا، ومع ذلک لا تأتى عملا ولا تخطو خطوة، سوى أنها اكتفت بإقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة الذى الدول، حتى أبحها الصياح وليس من يسمع ولا من يجيب. وذوو الحقوق فى الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم، قد شدت أياديهم بحبال من الآمال، وسلاسل من المخاوف، لا يجدون لهم قرارًا على فكر، ولا ثباتًا على رأى، وإنما هم بين إعصار من الأوهام، وتيارات من هواجس الخيال، يحملقون إلى مواقع الحوادث، حائرين لا يطرف لهم طرف، ولا يغمض لهم جفن، وعامة الأهالى فى الديار المصرية بين فقر كاد يفضى الى قحط، واختلاف فى النظام، وضعف فى السلطة، وخبط فى الأحكام، كادت تؤدى إلى يأس من الإصلاح، وقد أخذهم الدوار من التلفت إلى جوانبهم، طورًا ينظرون إلى حكامهم نظر الآمل فى هممهم، وحسن تدبيرهم، وآخر إلى ما وعدتهم به الحكومة الإنجليزية من الجلاء عن أوطانهم، وتركهم وما يدبرون لأنفسهم، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم، بدون أن يجعل لهم فيها سهم، كأنما هم عنها أغراب لا يؤبه بهم، ولا يبالى بشأنهم.

نزاع بين رجال السياسة الإنجليزية وبعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر وإعلان السيادة عليها واستلام أزمة أحكامها، وآخرون يقولون هذا مما يخالف أحكام الأمم، ولا تسوغه شريعة الوفاء، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمنًا يكفى لقضاء ما نريده فيها، ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتّم البقاء. عبارات مختلفة، ومَعان متشابهة، يتنازعون وهم متوافقون، ويتخالفون وهم متّحدون، يذهبون فى انتحال الأسباب لما يبتغون مذاهب مختلفة، فبعض الجرائد كجريدة «التايمز» وما على مشربها تعتل بالچنرال چوردون وتهون ما حل به من الفشل وتتقدم إلى الحكومة الإنجليزية بطلب إنقاذه من الخطر ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية، فلهذا الإعلان من القوة المعنوية التى تدافع عن الچنرال ما ليس لجيش عرمرم، أما إرسال الجيوش فهو محال لو عورة السبل وكثرة النفقات وشدّة الحرارة، ولئن همّت به الحكومة فإنما يكون من أعمال اليأس والقنوط، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصرى، فداء لرأس الچنرال چوردون. وفى زعمها أن ما تراه ليس رأيًا يبديه أرباب الجرائد، بل هو ما تراه الأمة البريطانية بأسرها، وربما لا يكون بعيدًا، وبعض الجرائد وتشاركهم جريدة «التايمز» تتذرع فيما تطب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق على ديونهم، وليس لهم ضمانة ترفع قلقهم، وتسكن اضطرابهم، إلا إعلان السيادة على القطر المصرى وقوم آخرون منهم يجعلون حجتهم

مصائب الأهالى المصريين ورزاياهم وما حلّ ببلادهم من احتلال، ولا ينقذهم من هذا الشقاء إلا السيادة الإنجليزية، جميعهم على وفاق على أن هذه السيادة هى الجوهر الثمين والسرّ المكنون، والإكسير المضنون به على غير أهله، متى أبرزوه لم يبق مريض إلا عوفى، ولا ضعيف إلا قوى، ولا فاسد إلا صلح، كأن فى هذا الاسم ما فى الرقى والطلاسم، يغنى عن الجيوش والأموال والعدة والرجال.

ولا نظن أن يكون فى هذا الاسم ما يدعيه الإنجليز من القوة ولا أن تكون فى طبه هذه الأسرار العجيبة، ولو أننا فرضنا تنازل أرباب الحقوق عن حقوقهم من الدول الأوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن والولاية، وسوغوا لحكومة إنجلترا أن تنقش أحرف السيادة فى أوراقها الرسمية أو فى هواء الديار، فليس من السهل عليها أن تزيد الحامية إلى حد يحفظ ملكًا عظيمًا يتاخم بلاد أوروبا وقد ظهرت آثار قوّتها مدة الحلول وما عاد منها على البلاد، على أن الأهالى كانوا فى سكون تام لركونهم إلى ما تعدهم به حكومة إنجلترا من الجلاء عن أوطانهم، فإذا أعلنت السيادة انفصمت علائق الآمال، وانحرفت القلوب ومالت إلى الدعوة القائمة على القرب منها، وانقلب الكافة إلى الذود على حقوقهم الوطنية أو الملية، ولا يرهبون القوة الإنجليزية فى داخل البلاد بعدما علموا شأنها، ويكون هذا حجّة جديدة لمحمد أحمد فى تأييد دعواه لدى المصريين ولا يرعبه اسم السيادة بعدما لم ترهبه جيوش الچنرال هكس وجراهام، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية إلى إخلاء سواحل البحر الأحمر، فأى شأن يكون لهذا الاسم الشريف؟! نعم يكون بداية مشكل جديد فى مصر والله أعلم بعاقبته.

***

التَّعَصُّب

(اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ) [الأعراف: ٣]

لفظ شغل مناطق الناس خصوصًا فى البلاد المشرقية، تلوكه الألسن وترمى به الأفواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة[٢١] للمتكلمين، يلجأ إليه العيى[٢٢] فى تهتهته[٢٣]، والذملقانى[٢٤] فى تفيهقه[٢٥]أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماه علّة لكل بلاء، ومنبعًا لكل عناء، ويزعمونه حجابًا كثيفًا وسدا بين المتّصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنوانًا على النقص وعلمًا للرذائل، والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشدّق بهذا البدع الجديد، فتراهم فى بيان مفاسد التعصب يهزون

---

٢١. التكأة: مايتوكأ عليه.

٢٢. العيى: من العى وهو العجز عن الكلام.

٢٣. التهتهة: ضرب من اللكنة.

٢٤. الذملقانى: السريع الكلام.

٢٥. التفيهق: التوسع والتنطع.

الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال، وإذا رموا به شخصًا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ إفرنجى (فناتيک)[٢٦]، فإن عهدوا بشخص نوعًا من المخالفة لمشربهم عدّوه متعصبًا، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشمخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدرًا لكل نقيصة، وهل لهم وقوف على شىء من حقيقته؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبة، وهى قوم الرجل الذين يعززون قوّته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصف للنفس الإنسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم، وهو عقد الربط فى كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحّد المتفرّق منها تحت اسم واحد، أو ينشئها بتقدير الله خلقًا واحدًا، كبدن تألّف من أجزاء وعناصر، تدبره روح واحدة، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص.

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناءة العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزّة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ الكلمة، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص. أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة.

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبى عنه انفعل الروح الكلى، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية. هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر، أو يئول بها إلى سوء عاقبة، وإن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها. يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطًا فى رتبة الوجود وإنما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلى، وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها، فما هى إلا كالأجزاء المتناثرة، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون، وإما أن تبقى فى قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الأخرى. (سنّة الله فى خلقه) إذ ضعفت العصبية فى قوم رماهم الله بالفشل، وغفل بعضهم عن بعض، وأعقب الغفلة تقطّع فى الروابط، وتبعه تقاطع

---

٢٦. معناها: متعصب.

وتدابر فيتّسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضة روح التعصب فى نشأة ثانية.

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف، له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط، واعتداله هو الكمال الذى بيّنا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنا لرزاياه، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء. فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة، وينظر إلى الأجنبى عنه كما ينظر إلى الهمل، لا يعترف له بحق، ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة، بل يتقوّض مجدها، فإن العدل قوام الاجتماع الإنسانى، وبه حياة الأمم، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال، وهذا الحدّ من الإفراط فى التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله: «ليس منّا من دعا إلى عصبية».

التعصب كما يُطلق ويُراد منه النعرة على الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد كذلك توسّع أهل العرف فيه، فأطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضًا، والمتنطعون من مقلدة الإفرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت، ويرمونه بالتعس، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل. فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات، وكسب الكمالات، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر، وعن كل منهما صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنسانى، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه، ومعاونته على حاجات معيشته، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصب المشتركين فى الدين المتوافقين فى أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور فى المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته، فهو فضيلة من أجلّ الفضائل الإنسانية، وأوفرها نفعًا وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوى المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد، خصوصًا إن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين. واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما فى أهل الديانة الإسلامية، على ما أشرنا إليه فى العدد الثانى من جريدتنا.

ولا يؤخذ علينا فى القول بأنه من أقدس الروابط، فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة، ويصل ما بينهم فى المقاصد والعزائم والأعمال، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة فى المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة فى الصور والأشكال، ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم. هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الدينى، وشهد عليه التاريخ بعدما أرشد إليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شىء منه.

ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به أخوالهم من ضيم، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم، ومن رأى أولئک المثغثغين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم.

كذب الخراصون، إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف، وأرحم مؤدب وأبصر مروّض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والخلائق الكريمة، ويقيمها على جادة العدل، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة، خصوصًا دين الإسلام فهو الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة، وهى الأمة العربية.

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى فيقضى إلى ظلم وجور، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم، وكما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتک والإبادة لا للفتح ولا للدعوة إلى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب، وكما فعل الإسپانيون بمسلمى الأندلس، وكما وقع قبل هذا وذاک فى بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم، إلا إن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة، ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الإسلامى فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم فى دينهم، وما عهد ذلک فى تاريخ المسلمين بعدما تجاوزوا حدود جزيرة العرب، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول، وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالک وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم، إلا أنهم كانوا مع ذلک يحفظون حرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه، ويدفعون عنه غائلة الدوان، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم: (أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا). ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله فى قوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)[النساء: ١٣٥]، اللّهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية.

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحدًا من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة، وكان ذلک فى شبيبتها وكمال قوّتها، ولم يزل الأمر على ما كان، وفى الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم، (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم).

لم يسلک المسلمون من عهد قريب المسلک الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدّة بأسهم فى بدايات دولهم، وتغلغلهم فى افتتاح الأقطار، واندفاع هممهم للبسطة فى الملک والسلطة، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها، فإن قبلت وإلا استبدلوا بها رسمًا ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الإسلامى، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيا شوكتهم الأولى، فإنّهم ما كانوا يطئون أرضًا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم، والتطوق بدين أولئک المسلطين وهو الدين المسيحى كما فعلوا فى مصر وسوريا، بل فى البلاد الإفرنجية نفسها.

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصّر، وتذكرة لمن يتذكّر، ثم أعود بک إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده: هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله أن الاعتدال من التعصب الدينى نقيصة؟ وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسى إلا بما يكون به التعصب الدينى أقدس وأطهر وأعم فائدة؟ لا نخال عاقلا يرتاب فى صحة ما قررناه فما لأولئک القوم يهذرون بما لا يدرون؟ أى أصل من أصول العقل يستندون إليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسى فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل، ويعبرون عنه بمحبة الوطن، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها؟

نعم إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما فى الرابطة الدينية، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية، ولأولئک الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم إلى بثّ هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها، لينقضوا بذلک بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعًا وأحزابًا، فإنهم علموا كما علمنا، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار الإسلامية، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدًا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقًا منهم وسفاهة، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل إن يهييء لنفسه مسكنًا سواه،فاضطر للإقامة بالعراء معرضًا لفواعل الجو وما تصول به على حياته.

من هذا ما سلک الإنجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سُلب منهم، وأرشدهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة الملية سائدة فيهم

فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم، فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام، ويلبسون لباس المسلمين، وفى صدورهم غلّ ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعروفون فى البلاد الهندية بالنيجرية ـ أى الدهريين ـ فاتخذهم الإنجليز أعوانًا لهم على فساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم، ويبددوا جمعهم، ويمزقوا شملهم، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى (عليكر) ونشر جريدة لبثّ هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعمّ الضعف فى العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الإنجليز فى التسلط عليهم، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم، وغر أولئك الغفّل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية، ويذنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش).

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والعصرية وغيرها من الممالك الإسلامية، ولم تعدم صيدًا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكنّا نعجب من أن بعضًا من سذّج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم، ويفسدون شأنهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفى محوه محو الملّة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء.

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدين ورمى المتعصبين بالخشونة.. الإفرنج أشدّ الناس فى هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه، ومن القواعد الأساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم، وإذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشرى على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحاً وعويلا وهيعات ونياءات تتلاقى أمواجها فى جو بلاد المدنية الغربية وينادى جميعهم: ألا قد ألمت ملمة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية. وتراهم على اختلافهم، فى الأجناس وتباغضهم، وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات، وترقب كل دولة منهم، لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتّحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم فى الدين، وإن كان فى أقصى قاصية من الأرض، ولو تقطعت بيته وبينهم الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب، فلا ينبض فيه عرق ولا يتنبّه لهم إحساس، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حدّه، ويذهلون عمّا أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية، وليس من نوع الإنسان الذى يزعم الأوروپيون أنه حماته وأنصاره، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى، ولا يألون جهدًا فى تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق، ولكن كثيرًا ما تجاوزوه. أما إن شأن الإفرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب!

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلادستون، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نقثة من روح بطرس الراهب[٢٧] بل لاترى روحه إلا نسخة من روحه، (انظر إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة).

فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها، ودماؤكم فلا تريقوها، وأرواحكم فلا ترهقوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت. هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى، والفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية، حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره، وتقاصت أقطاره.

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزّتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها، ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم، ومعزمة الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة وإحكام الألفة فى النافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم، وعليكم أن لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان، وذريعة لانتهاك الحقوق، فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشدّ العقاب. هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض، بل تضافروا بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الإنسانية.

اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوّة النقص إلى ذروة الكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

القضاء والقدر

٢٧. هو داعية الحرب الصليبية.

مضت سُنّة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانًا على الأعمال البدنية، فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا فى بعض الأعداد الماضية، وربّ عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس، وربّ أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شى مما تصادفه، وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ فى الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلک على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلک الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلک الأصل وتلک القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم وقع التحريف والتبديل فى بعض أصول الأديان غالبًا، بل هو علّة البدع فى كل دين على الأغلب، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاک وبئس المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقّة استنادًا إلى أعمال بعض السذّج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة.

من ذلک عقيدة القضاء والقدر التى تُعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة. كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعة، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا إليهم أطوارًا، ثم حصروا علّتها فى الاعتقاد بالقدر فقالوا: إن المسلمين فى فقر وفاقة وتأخّر فى القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرّقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عمّا يضرّهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضرّ أخاه لا يقصرّ فى إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون فى كسور بيوتهم، يسرحون فى مرعاهم، ثم يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئًا. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا، نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل فى حسابها شىء يعود على ملّتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمّة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه، ويستعدى عليه جاره، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفًا قاتلا فينال من بلادهما ما لا يكلّفه عددًا ولا عدة، شملهم الخوف وعمّهم الجبن والخور يفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة، وخالفوا فى ذلک أوامر دينهم، مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب

قومًا من إخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسعون فى تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة، وتنبيه الحمية، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلّط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزا ولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعديًا، ولا ينهضون بتقوية سلطان، أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم، ويركس من طباعهم، حتى يؤدى بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفنى بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الأجانب.

واعتَقَدَ أولئک الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلّقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا خيار لهم فى قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلک بقوة جابرة، وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارک والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب، وأجدر بهم بعد ذلک أن يتحوّلوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق، ولست أخشى أن أقول: كذب الظان وأخطأه الوهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمن كذبًا، لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى وإسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريا فى أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزاء الاختيارى ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهى الربانية، الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعى، وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارًا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرک الشخص فكّه للأكل والمضع وبين أن يتحرک بقفقفة البرد عند شدّته، ومذهب هذه الطائفة يعدّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبقَ لهم أثر،، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلک الاعتقاد ما ظنه أولئک الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقاربه فى الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم. وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من

حلقات تلك السلسلة. وليست الإرادة إلا أثرًا من آثار الإدراك. والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس. وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله، فضلا عن عاقل، وإن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبّر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعًا لشبهه كأنه جزاء له خصوصا فى العالم الإنسانى.

ولو فرضنا أن جاهلا ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس فى إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنّها الله فى خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين، وإن بعضًا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان فى إثباتها، ولسنا فى حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم.

إن للتاريخ علمًا فوق الرواية عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمّة وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والأخلاق والأفكار، بل فى خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كلّه من نشأة الأمم، وتكوّن الدول، أو فناء بعضها واندراس أثره.

هذا الفن الذى عدوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر، والإذعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات، ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوى، ولا انهدم مجد، ولا تقوّض سلطان.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرّد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلى عن نضرة الحياة، كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملّته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد، على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية.

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق: (الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وقالُوا حَسْبُنَا اللّهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللّهِ واللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلّطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب مما دوخوا الدول وقهروا الأمم،

وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة بين إسپانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلادًا، ودكدكوا أطوادًا، ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القسطل، وطبقة أخرى من النقع، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رءوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريصة، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم، لا يخشون فقرًا ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهّل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم، كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانًا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم، وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة، هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الأكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب، يقذف به فى قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم.

بكائى على السالفين ونحيبى على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة، أين أنتم يا خير أمّة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم؟ انحرفوا عن سنّتكم، وجاروا عن طريقكم; فضلوا عن سبيلكم، وتفرّقوا فرقًا وأشياعًا، حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنًا. أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبّه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدى الضال، إلى سواء السبيل؟ (إِنّا لِلّهِ وإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ) [البقرة: ١٥۶].

أقول وربما لا أخشى واهمًا ينازعنى فيما أقول، إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم، ما وجد فاتح عظيم، ولا محارب شهير، نبت فى أوسط الطبقات، ثم رقى بهمته إلى أعلى الدرجات فذللت له

الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب، إلا كان معتقدًا بالقضاء والقدر. سبحان الله، الإنسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة، فما الذى يهوّن عليه اقتحام المخاطر، وخوض المهالك، ومصارعة المنايا، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسى (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف فى تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر فى فتوحاته الواسعة، إلا لأنه كان معتقدًا بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهول هول، ولا توهن عزيمة شدّة، وأن إسكندر الأكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وچنكيزخان التترى صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان ناپليون الأول بونابرت الفرنساوى من أشدّ الناس تمسكًا بعقيدة القضاء وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذى يطهّر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته أيا كانت، نعم إننا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر، وربما كان هذا سببًا فى رزيئتهم ببعض المصائب التى أخذتهم بها الحوادث فى الأعصر الأخيرة، ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبته أئمتنا رضى الله عنهم كالشيخ الغزالى وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا فى العمل، لا فى البطالة والكسل، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، وننبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامى فى أن الدفاع عن الملة فى هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالفتات إلى عقائدهم الحقّة التى تجمع كلمتهم، وترد إليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وإن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

أما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخّر فليس منشئوه هذه العقيدة ـ ولا غيرها من العقائد الإسلامية ـ ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه، بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهى غارة التتر من چنكيزخان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهى زحف الأمم الأوروپية بأسرها على ديارهم، وإن الصدمة فى حال النشوة تذهب بالرأى، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولى على أمورهم من لا يحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد فى أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى

لا تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب له الضر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلّة صحيحة ولا داع قوى وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا إليه.

ولكنى أقول ـ وحق ما أقول ـ إن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح فى أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلى، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقّة، ويعود الأمر كما بدأ وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر فى إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدّها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا عبد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الإفرنجية، حتى كان السلطان العثمانى يلقّب بين الدول بالسلطان الأكبر.

ثم ارجع البصرتجد هزّة فى نفوسهم وحركة فى طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب، حركة سرت فى أفكار ذوى البصيرة منهم فى أغلب الأنحاء شرقًا وغربًا وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعى بغاية الجهد لبثّ أفكارها، وجمع الكلمة المتفرقة، وضم الأشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم، وإنّا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يومًا بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عمومًا وللمسلمين خصوصًا.

***

الفضائل والرذائل وأثر هما

(وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [الذاريات: ٥٥]

قالوا: للإنسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه، وقالوا إنّه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه، وقالوا كماله فى استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه فى التلوّث برذيلة من الرذائل، فما هى الفضائل وماهى الرذائل؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها، فالسخيان لا يتشاحنان ولا يتنازعان فى التعامل، فإن من سجية كل منهما البذل فى الحق، والمنع إذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حدّه فيقف عنده، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية، والأعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات، فإن من خُلق كل منهم التجافى عن الشهوة، وفى طبيعته الإيثار بالرغائب، وهكذا إذا استقرأت جميع ما عدّه علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتّصفين بها فى متعلق الأثر الناشىء عن تلك الفضيلة فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت فى

شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام فى جميع الأعمال والمقاصد أو جلّها، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة. وعلى هذا النحو يكون الأمر فى الأشخاص الكثيرة، فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد، تميل بكل منهما إلى الآخر، إلى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم، يتحرّك بإرادة واحدة، ويطلب فى حركته غاية واحدة، مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الأعمال فإذا شمل طائفة من نوع الإنسان وقف بكل من آحادها عند حدّه فى عمله لا يتجاوز بما يمسّ حقا للآخر فيه يكون التكافؤ والتآزر، لكل شخص من أفراد الإنسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الإلهية من القوى ما به يحفظ وجوده، وما به التناسل لبقاء النوع، وهو فى هذا يساوى سائر أفراد الحيوان، لكن قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازًا عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر، ووجود أرقى وأعلى، وهو كون الاجتماع، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمّها اسم واحد والأفراد فيه كأعضاء تختلف فى الوظائف والأشكال، وإنما كلٌ يؤدى عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود إليه نصيب من عملها الكلى كما أودع الله فى أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية، والفضائل فى المجتمع الإنسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حدّ وظيفة كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الإبصار، والعين بها الابصار وتميّز الألوان والأشكال، وليس من وظائفها البطش، والكل حى بحياة واحدة، وإن شئت قلت الفضائل فى عالم الإنسان كالجذبة العامة فى العالم الكبير، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات، وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيرة فى مداره الخاص بتقدير العزيز العليم، حتى تمت حكمة الله فى وجود الأكوان وبقائها، كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الإنسانى، بها يحفظ الله الوجود الشخصى إلى الأجل المحدود ويثبت البقاء النوعى إلى أن يأتى أمرالله.

أى أمّة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدير أمورها، ويسوسها فى شئونها إنما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها «من الأعلياء والأوساط بل سائر الأطراف» ويكون كل واحد منها قائمًا بحق الكل ولا يختار مقصدًا يعكس مقصد الكل، ولا يسعى إلى غاية تميل به من غاية الكل، ولا يهمل عملا يتعلّق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكّه الزلازل، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة، تحفظ بها موقعها، وتدفع بها عن شرفها ومجدها، وتردّ غارة الأغيار عليها، فهى الأمة التى سادت فيها الفضائل، واستعلت فيها مكارم الأخلاق.

إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف، ولا يتغايرون إلا للاتحاد، فمثلهم فى اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان فى مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم فى تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبى طرفى خيطة واحدة (حبل واحد) كلٌ آخذ بطرف مع تعادل القوتين، ففى جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر، فلا يفترقان ولا يتباينان، ولا تفنى منفعة أحدهما فى منفعة الآخر، أما إن مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من

الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية، وإنهم فى جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمدّ البحرلتستمد منه.

يرى كل واحد منهم أن ما تبتهج به النفوس البشرية، وتمتاز بالميل إليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة، إنما يمكن إذا توفر للأمة حظّها من هذه المزايا فيسعى جهده لإبلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله. فلا يهمل ولا يخون فى الدفاع عن فرد من أفرادها. فضلا عن هيئتها العامة. وإلا فقد خان نفسه; لأنّه أبطل آلة من آلات عمله، وقطع سببًا من أسباب غايته، ولا يحتقر واحدًا من الآحاد، ولا يزدرى بعمله، ويحسب الشخص من الأمة وإن كان صغيرًا بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه.

عليك أن تنظر فى حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذى بيّناه: التعقّل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفّة والسخاء والقناعة والدماثة «لين الجانب» والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار «تقديم الغير بالمنفعة على النفس» والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدرمن الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة.

ألاترى لو عمّت هذه الصفات الجليلة أمّة من الأمم أو غلبت فى أفرادها أيكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرّين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها، أو قفرا لأنبتتها أو جدبًا لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها، ولأقامت لها من الوحدة سياجًا لا يخرق، وحرزًا منيعًا لا يهتك، وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال فى هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيّهم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة، وتحفظها من الانحلال المؤدى إلى الزوال (وَ ما كانَ رَبُّک لِيُهْلِک الْقُرى بِظُلْم وأَهْلُها مُصْلِحُونَ)[هود: ١٧].

وأما الرذائل فهى كيفيات خبيثة تعرض للأنفس، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة «قلة الحياء» والبذاء «التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام» والسفه والبله والطيش والتهوّر والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق، فأى صفة من هذه الصفات تلوّث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء، وذهبت بهما مذاهب الخلاف إلى حيث لا يبقى أمل فى الوفاق، فإن طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود فى التعدى على الحقوق وإما السقوط إلى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه فى الجنسية أو الملة أو القبيلة أو العشيرة أو بأى نوع من أنواع التعامل، والإنسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها، وإن شئت فتخيّل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين «كل يمنع الآخر

حقّه» شرهين حاقدين حاسدين متكبرين «كل لا يستحسن إلا فعل نفسه» لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غايۀ؟ أليسَ كل وصف على حدّته قاضيًا بانتباذ كل من صاحبه وإن لم تكن داعيۀ، وكفى بخُلقه وصفته باعثًا قويا للتنابذ.

هذه الرذائل إذا فشت فى أمۀ نقضت بناءها ونثرت أعضاءها، بددتها شذر مذر، واستدعت بعد ذلک طبيعۀ الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمۀ قوّۀ أجنبيۀ عنها لتأخذها بالقهر، وتصرفها فى أعمال الحياۀ بالقسر، فإن حاجاتهم فى المعيشۀ طالبۀ للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف، فلابد من قوۀ خارجۀ تحفظ صورۀ الاجتماع إلى حدّ الضرورۀ.

هذه صفات إذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، تراهم أعزّۀ بعضهم على بعض، أذلۀ للأجنبى عنهم، يدعون اعداءهم للسيادۀ عليهم، ويفتخرون بالانتماء اليهم، يمهدون السبل للغالبين إلى النكايۀ بهم ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحًا، وكل جليل منهم حقيراً، إذا نطق أجنبى بما يدور على ألسنۀ صبيانهم عدوّه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدوّه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم: ليس فى الإمكان ان يكون منّا عارف ومن المحال أن يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفخۀ والفخر الكاذب، ويتنافسون فى سفاست الأمور ودنياتها، يرتابون فى نصح الناصحين، وان قامت على صدقهم اقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وإن كانوا فى طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبۀ من يسعى لإعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكل سبيل، يقيمون فى طريقه العقبات، ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تنتظم لأعضائه حركۀ، ولا يمكن تحريک عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم، فتنفلت أعمالهم عن حدّ الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعًا ومبعثًا للضر، يصير الواحد منهم كالكلب، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبى، بل كالمبتلى بجنون مطبق، أول ما يفتک بمربيه ومهذبه ثم يثنى بطبيبه ومن يعالج داءه، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكالۀ من نحو الجذام والآكلۀ، يمزّقون الأمۀ قطعًا وجذاذات بعدما يشوّهون وجهها ويشوشون هيئتها، أولئک قوم يسامون فى مراعى الدنايا والخسائس لتغلب النذالۀ على سائر أوصافهم، فينتفخون على أبناء جلدتهم، ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم، وبهذا يمكنون الذلۀ فى نفوسهم، من دونهم، ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الأعداء الألداء من طبقۀ إلى طبقۀ حتى تضمحل الأمۀ وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمۀ أو ملّۀ أخرى، سنّۀ الله فى تبدّل الدول وفناء الأمم (وَ كَذلِک أَخْذُ رَبِّک إِذا أَخَذَ الْقُرى وهِيَ ظالِمَۀٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: ١٠٢]،أعاذنا الله من هذه العاقبۀ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير إلى هذه النهايۀ.

بقيت لنا لمحة نظر إلى ما به تقتنى الفضائل، وتمحّص النفوس من الرذائل، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد «كل مولود يولد على الفطرة» مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بإى لون، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه؟! أنى يكون لهم حظّ منها، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم؟! يرشدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين، ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرًا مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا إذا قام رؤساء الدين وحَمَلَتُهُ وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها فى العقول ودعوة الناس إلى العمل بها، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها، أما إذا أهمل خَدَمَة الدين وظائفهم أو تهاونوا فى تأديه أعمالها ضعف اليقين فى النفوس، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية، وتسلّطت الحاجات المعاشية، ومال ميزان الاختيار مع الهوى، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل، فيحق على الناس كلمة العذاب، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا إليه سابقًا.

هذه علل الخراب فى كل أمة، لقد ظهر أثرها فى أمم لا تحصى عددًا من بداية كون الإنسان إلى الآن، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل فيهم، بعدما بدلوا وغيّروا كما فى طائفة (الدهير) و(منک) من سكَنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوروپيين بطائفة «باريا» (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) [الروم: ۴۲].فالدين وهو السائق إلى السعادة فى الدنيا كما يسوق إليها فى الآخرة.

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزّهم وألقاها على هامات قوم آخرين، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلّب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف، ولا يكون ناشئًا إلا عن شىء من الإهمال فى اتّباع أوامر الشرع الإسلامى ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه: (إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْم حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: ۱۱]. وقد يكون ذلک، وربما لا ينكر الآن أن كثيرًا من عامة المسلمين وإن صحّت عقائدهم من حيث ما تعلّق به الاعتقاد إلا أنهم لا ينهجون فى بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغرّاء، وهذا مما يحدث ضعفًا فى قوّة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال فى الفضائل والأعمال (وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَة فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) [الشورى: ۳۰].

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ولهم حسن الإذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم، وسنّة نبيّهم يتناقلونها رواية ودراية، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف فى القوة إلا عرضًا لا يبقى وحالا لا يدوم.

انظر نظرة إنصاف إلى ما أودعتهُ آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم، وإلى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله، تجد من نفسک حكَمًا باتا بأن علماء الديانة الإسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم

المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجّه إلى الذين يعقلونه وهم هم فى قوله الحق: (وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وأُولئِک هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: ١٠٤] وبالحض الإلهى المفهوم من قوله: (فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ) «المؤمنين» (طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)[التوبة: ١٢٢]. ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة، لرأيت أن الأمة الإسلامية ناشطة من عقالها، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف، وبيضة دينها من الصدع، كل ذلک فى أقرب وقت، ولن تكون إلا صيحة واحدة فإذا هم قيام ينظرون.

ولا ريب أن الراسخين فى العلم من أهل الدين الإسلامى يعلمون أن ما أصيب به المسلمون فى هذه الأزمان الأخيرة، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرّطوا، وليس للناس على الله حجة فالرجاء فى هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه، ومداواة العلة قبل استحكامها، فيُذكّروا أبناء الملّة بأحكام الله، ويُحكموا بينهم روابط الإخوة والألفة كما أمر الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذى ملک أفئدة البعض منهم، ويقنعوهم أنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ، ويسيروا بهم فى سبيل يجمع كلمتهم، ويوحّد وجهتهم، ويقوّى فيهم إباءة الضيم، والنفرة من الذل، ويحرّک فيهم روح الأنفة، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتى الدنية فى دينه، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله: (وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم: ۴۷].

***

الوحدة الإسلامية

(وَ أَطِيعُوا اللّهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال: ۴۶].

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكانى على حدود الصين، فى عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب. أخذ بصولجان الملک منهم ملوک ظام، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يُرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الأراضى المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الأشجار، صنع أيدى المسلمين، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم والآداب.

كان فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم، وفى الغرب ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، وما بين ذلک أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين[٢٨] وترتعد منها فرائص أعظم الملوک فى أوروپا. ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى، وصلاح الدين الأيوبى، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان، وفى الغرب السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم والسلطان سليمان العثمانى، أولئک رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم.

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلک البحار إلى زمان غير بعيد، كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلک الأقطار التى ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمائة مليون، وأفرادهم فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقدامًا على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلک أشدّ الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسک بالأوهام، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات، فأودع فى أفكارهم أصول الحق وبذر فى نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنًا وأشدّ استعدادًا لنيل الكمالات الإنسانية، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق، وربما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شئون العالم أجمع ولو كره المبطلون، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت. لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملّته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه. ذلک إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليًا، وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم إليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل.

ذلک شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذا كلّه وقفوا فى سيرهم، بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم، وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته. هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون؟! هل غفلوا عن تكفّل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون؟! هل سهوا عن

٢٨. فغفور: لقب ملوک الصين.

أن الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة؟! لا. لا. إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاكمة فى إرادتهم، وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم.

نعم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم، وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأنا بيّنا أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم، فتعدد الملكة عليهم كتعدد وتعارض الغايات، فى قبيلة واحدة، والسلاطين فى جنس واحد، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهى أشبه شىء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عمّا نالوا من العلوم والصنائع، فضلا عن التقصير فى طلب ما لم ينالوا منها، والإعسار دون الترقى فى عواليها، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرّق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم.

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين فى ميادين الوغى، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى، وضلّت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملّتهم، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل.

هذا الذى أباد مسلمى الأندلس، وهدّم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيّد الإنجليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيهم الكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة فى الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها.

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس، ما أشدّ ضررهما وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضًا من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتّحدوا فى الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودو لشئونهم، ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة

فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى. هؤلاء الذين حوّلوا أوجه المسلمين عما ولا هم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب.

الاتفاق والتضافر على تعزير الولاية الإسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر. إن رعاة المسلمين فضلا عمّن علاهم تتصاعد زفراتهم، وتفيض أعينهم من الدمع حزنًا وبكاءً على ما أصاب ملتهم من تفرّق الآراء وتضارب الأهواء، ولو لا وجود الغواة من الأمراء، ذوى المطامع فى السلطة بينهم، لاجتمع شرقيهم بغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم، ولبى جميعهم نداءً واحدًا. إن المسلمين لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم، إلا إلى تنبّه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشىء عن إحساس بما يطرأ على الملّة من الأخطار.

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة، هى أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروپا وليس فى ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليس هناک ما يستفيضها من الأعمال الصناعية، فهى مصابة بالحاجة والإعواز، غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتّفاقهم فى النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسى أوروپا. لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية، ولكن لم يمنعها ذلک عن اقتنائها، ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى حد ما عليه جيرانها، إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها، حتى صار لجيشها صولة تخفيف، وحملة تخشاها دول أوروپا.

فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا، فيما هو أيسر الأشياء علينا، ونحن أشدّ الناس ميلا إليه: من رعاية شرف الملّة والتألم بما يحطّ منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها. ما رد الأفكار عن الحركة، وما أقعد الهمم عن النهوض، إلا أولئک المترفون، يحرصون على طيب فى المطعم، ولين فى المضجع، وتطاول فى البنيان، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون فى حرصهم ما بعد يومهم، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع، يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والأعياد وهزّ الرؤس وثنى الأعطاف، تعظيمًا وتبجيلا، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات، هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل، من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته، أولئک صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا، يحبسون هذه الأسود عن فريستها، بل يجعلونها طعمة للثعالب، لا حول ولا قوّة إلا بالله.

أيا بقية الرجال، ويا خلف الأبطال، ويا نسل الأقبال، هل ولى بكم الزمان، هل مضى وقت التدارک، هل آن أوان اليأس، لا، لا، معاذالله أن ينقطع أمل الزمان منكم، إن من أدرنة إلى بيشاور دول إسلامية متصلة الأراضى، متّحدة العقيدة يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونًا، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتفقوا على الذبّ والإقدام كما اتّفق عليه سائر الأمم؟! ولو اتفقوا فليس ذلک

ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض؟! أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات: ١٠] فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدافعة عليهم من جميع الجوانب.

لا ألتمس بقولى هذا أن مالك الأمر فى الجميع شخص واحد، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه بقائه، إلا أن هذا بعد كونه أساسًا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات، هذا آن الاتفاق، هذا آن الاتفاق، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص وهى لكم غنائم فلا تفرّقوا، إن البكاء لا يحيى الميت، إن الأسف لا يرد الفائت، إن الحزن لا يدفع المصيبة، إن العمل مفتاح النجاح، إن الصدق والإخلاص سلّم الفلاح، إن الوجل يقرب الأجل، إن اليأس وضعف الهمّة من أسباب الحتف، (وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ وسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[التوبة: ١٠٥] ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، احذروا أن تقعوا تحت قول الله: (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)[التوبة: ٨٧] إن القرآن حى لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه، وحكّموه فى أحوالكم وطباعكم (وَ مَا اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ) [البقرة: ٧٤].

ولعلّ أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهمّوا بملافاة أمرهم، قبل أن يقضى عليهم، بما رزىء به المفرطون من قبلهم، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة، ولا نرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف، والله يهدى من يشاء ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الوحدة والسيادة

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا»

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجتمع، والمكلف بسيادة لا توضع. وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع فى ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقًا سويا، ثم استبقى له حياته بقدر ما يكون فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلا بد يومًا أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض. إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت

والهلاک، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها. إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعدالله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم، إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرأنا أحوال الشعوب فى وجودها وفناها، وجدنا سنّة الله فى الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب، وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم، إلا عند لهوهم بما فى أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم، ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلک الله قبيلا إلا بعدما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلا طويلا وعذابًا وبيلا، ثم فناءً سرمديا.

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلک، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته، فيجعل جزءًا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد، وما يدفع عنها طوارق الشرّ والغيلة، ولا يكون همّه بالفكر فى هذا أقل من همّه بالنظر فى أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظرًا عقيمًا حائرًا بين جدران المخيلة، دائرًا على أطراف الألسنة، بل يكون استبصارًا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الاعتبار، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما. ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير، ويخترطون سيوفاً من الهمّة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونوادر من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلک للأمة، لصيانة حياتها إلى حدّ العمر اللائق لها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده. وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة.

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيّناه، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة هممًا تعلو، وشيمًا تسمو، وإقدامًا يقود، وعزمًا يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم، فى سبيل الطلب فيندفعون للتغلب عن الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضو إليه، ويكون فوزهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقًا من الطبع لا يحتاج إلا فكر وروية إلا فى إعداد وسائل الفوز والظفر.

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسک بها ومن خالف أمرالله فيما فرض منهما عواقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى

الآخرة، جاء فى قول صاحب الشرع: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا». وإن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مسّ أحدهما ألم تأثر له الآخر، وجاء فى نهيه: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد‌الله إخوانا». وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

هذا كله بعدما أمرالله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن،: وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الألهى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات: ١٠]. وطلب من المخاطبين بآياته إن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد على وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغى، فقال: (وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ) [الحجرات: ٩]. وإنما أمرالله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ) [آل عمران: ١٠٥]. وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيراً، وفى أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن: «يد الله مع الجماعة»، وكفى بالقدرة الإلهية عونًا إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الإسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية، حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفًا عن حكم الله وما فى علمه وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، وعدّ جحوده مروقًا من الدين، وانسلاخًا عن الإيمان، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم: «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم، حيث وفدوا على عبدالله ابن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمِّى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلا يزيد على حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دُعى إليه، هذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم; فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

وأما السعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله، وفى السُنّة المحمدية والسيرة النبوية، مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عدّها، هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا، كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا، هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا ينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين، وأيسر شفاعة إلينا إقامتها وعديدنا أربعمائة مليون أو يزيد، هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

كل هذه الرزايا التى حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقًا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للأغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا، وهل كنّا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم، وأيدينا على نواصيهم. إن لأبناء الملة الإسلامية يقينًا بما جاء به شرعهم، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين؟ (أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ) [العنكبوت: ٢، ٣]. ولا ريبة فى أن المؤمن يسرّه أن يعلمه الله صادقًا لا كاذبًا، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل، هل يود المسلم لو يعمّر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة هو دليل الإيمان، أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبدّ فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلاّ ولا ذمّة، بل أكبر همّه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته.

لا.. لا.. إن المخلصين فى إيمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله: (إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ) [محمد: ٧]. لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر؟ المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين. هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكّسة، وأملاكنا ممزّقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ثم لانُبدى حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندّعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمّد.. واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

إن الميل للوحدة والتطلّع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه فى أعداد ماضية، فألهاهم عمّا يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانًا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهموا وما غووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة، كل يطلب عونًا وهو معه ولكن

لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هى إلا كلمة تُقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب. هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم، وما ضاقت به صدورهم من غارات الأغراب على بلادهم، حتى بلغت أرواحهم التراقى، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا، وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد، ويهيىء لهم فوزًا ونجاحًا بعون الله الذى ما خاب قاصده، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب.

***

الأمل وطلب المجد

(إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ) [يوسف: ٨٧].

(وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ) [الحجر: ٥٦].

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سرّ عظيم، اختصّ الله به الإنسان ورفعه به على سائر الأكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز ما أعدته له العناية الإلهية من الكمال اللائق به. راجع نفسك، وأصغ لمناجاة سرك، تجد فى وجدانك ميلا قويا، وحرصًا شديدًا، يدفعك إلى طلب المجد وعلو المنزلة فى قلوب أبناء جنسك، ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها، تجد مثل ذلك فى كليتها كما هو فى آحادها تبتغى رفعة المكانة فى نفوس الأمم سواها، ذلك أمرٌ فطرى جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفردًا ومجتمعًا، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل إلى ما يطلب ولكنه يلاقى فى الوصول إليه وعرًا فى السبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا ينقص ميله، يقطع شعابًا، ويعانى صعابًا، حتى يرقى ذروة المجد، ويتنسم شاهق العزة، ولو قام فى وجهه مانع عن الاسترسال فى مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء، ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر، ونسب كل عمل إلى غاية العامل منه، رأى أن معظمها فى طلب الكرامة وعلو المقام، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئًا مذكورًا بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف، هذه خلة ثابتة فى الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر والنهى، كل ينافس أهل طبقته فى أسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار، حتى إذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل فى طبقة أخرى، ونافس أهلها فى الجاه، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر فى بسيط

الأرض، ذلک لأن الکمال الإنسانی لیس له حدّ، ولا تحدّه نهایة، ولیس فی استطاعة أحد من الناس أن یقنع نفسه ویعتقد أنه بلغ من الکمال حدا لیست بعده غایة.

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان وماذا ملکت من أهوائه؟ بعده ثمرة حیاته وغایة وجوده، حتی إنه یحتقر الحیاة عند فقده والعجز عن درکه، أو عند مسه والخوف من سلبه، أرأیت أن فقیراً ذا أسمال لا یؤبه له إذا اعتدی علیه من تطول یده إلیه بفعلة تهینه، أو قذفة تشینه، یغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التی هو فیها فیرتکب مخاطرة ربما تفضی به إلی الموت، وإن القذف أو الإهانة ما نقصت شیئًا من طعامه ولا شرابه، ولا خشنت مضجعه فی مبیته، آلاف مؤلفة من الناس فی الأجیال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم إلی المهالک، وماتوا دفاعًا عن الشرف أو طلبًا للکرامة والمجد، جل شأن الله لا یهنأ للإنسان طعام ولا شراب، ولا یلین له مضجع إلا أن یلحظ فیه أن ما نال منه أعلی مما نال سواه، مع وقوف بعض من الناس علی ذلک لیعترفوا له بالأعلویة فیه، کأن لذة التغذیة والتولید إنما وضعت لتکون وسیلة للذة المباهاة والمفاخرة، فما ظنک بسائر اللذائذ. کم یعانی الإنسان من التعب البدنی وکم یقاسی من مشاق الأسفار. کم یخاطر بروحه فی اقتحام الحروب والمکافحات، وکم یتحمل فی الانقطاع عن اللذات، مع التمکن منها، کل ذلک لینال شهرة أو لیکسب فخارًا أو لیحفظ ما أتاه الله منه، ما أجلّ عنایة الله بالإنسان لا یعیش إلا لیشرف فیشرف به العالم، وکل لذة دون الشرف فهی وسیلة إلیه، بل الحیاة الدنیا هی السبیل الوعر یسلکها الحی إلی ما یستطیع من المجد، وفی نهایة الأجل یفارقها قریر العین بما قارب منه، آسف الفؤاد علی ما قصر عنه.

ما هو المجد الذی یسعی إلیه الإنسان بالإلهام الإلهی، ویخوض الأخطار فی طلبه ویقارع الخطوب فی تحصیله؟! هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد، وتذعن له بالاعتلاء، وتُلقی إلیه قیاد الطاعة، یکون هذا له ولکل من یدخل فی نسبته إلیه من ذوی قرابته وعشیرته وسائر أمته فتنفذ کلمته إلیه وکلمة المتصلین به، والملتحمین معه فی شئون من سواهم وهو أعظم مکافأة من العزیز الحکیم علی معاناة الأوصاب لتحصیل ذلک الشأن فی هذه الحیاة الأولی، فما کان یحسبه طالب المجد عائدًا إلی نفسه بالمنفعة، یبارک فیه مدبر الکون فیفیض خیره علی بنی جلدته أجمعین. واها! تلک حکمة بالغة: إذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد. نعم وهل نال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها: (ذٰلِک تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ)[یس: ٣٨]. ماذا یستطیع المجاهد وحده؟ وماذا یکسبه من سعیه، إن لم یکن له أعضاد من بنی قبیله. فمن کان همّه أن یصعد إلی عرش العزة، ویرقی إلی ذروة السیادة فعلیه أن یهیيء نفسه والمنتمین إلیه لتحصیل کل ما یعد فی العالم الإنسانی فضیلة وکمالا. ما أصعب القیام بخدمة هذا المیل الفطری والإلهام الإلهی! وما أشدّ ما تحمل النفوس فی قضاء بعض الوطر مما یتصل به! وما أعظم الحامل للأنفس علی تجشم المصاعب لنیل ما تمیل إلیه من هذا الأمر الرفیع! ما هذا الباعث الشریف الذی یسهل علی الأرواح کل صعب

ويقرّب كل بعيد، ويصغر كل عظيم، ويلين كل خشن، ويسليها عن جميع الآلام، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة، فضلا عن بذل كل نفيس، والسماح بكل عزيز! هذا الباعث الجليل، وهذا الموجب الفعال هو الأمل.

الأمل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب، ومرشد حاذق فى بهماء الكروب، وعلم هاد فى مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم إذا عرتها فترة، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنية والتشهى اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لى كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب، كأن صاحبهما يروم أن يبدّل الله سنته فى سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق إليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعبًا أو يتلاقى مشقة، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصحبه حمل النفس على المكاره، وعرك لها فى المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها فى سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ فى مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذى لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون.

وكما كان الميل للرفعة أمرًا فطريا، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتهما فى فطرة عموم البشر كان داعيًا للمزاحمات والممانعات، فإن كل واحد بما أودع فى جبلته يطلب الكرامة والتمكن فى قلب الآخر، فكل طالب ومطلوب، ولم تبلغ سعة العقل الإنسانى إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملا تكون له به المنزلة العليا فى جميع النفوس، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجادًا شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم تزاحموا فى الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشرى حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين. فإذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث فى الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد فى هاتين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد فى سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يئول الضعف إلى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما).

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم، يحكمون على أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجّه إليهم من ذلك أيا كان، فتسلب منهم جميع الإحساسات والوجدانات الإنسانية التى يمتاز بها الإنسان عن الأنعام فيرضون بما ترضى به البهائم، فلا يهتمون إلا بحاجات قبقبهم وذبذبهم، ثم يا ليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات، ويتّبعون مواقع الغيث، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلّط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم، فيكونون كالنمال الحمالة لا تستفيد مما تحمل شيئًا، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح، فيعالجون العمل فى الفلاحة والصناعة وغيرهما من الأعمال الشاقة، ويدأبون بأشدّ مما يدأب العامل لنفسه، ثم لا ينالون مما يعملون شيئًا، ثمرات كسبهم بأسرها محولة إلى الذين سادوا عليهم بهممهم

(هذا الذى يتجشمه الذليل فى ذلة من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضًا منه فى طلب العزّة لأصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة، فإن السائدين يشعرون بحكم البداهة، أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ورضوا لها بما دون حقها، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله فى تكوينهم على الشكل الإنسانى وإيداعهم ما أودع فى أفراد الإنسان فيعاملهم أولئک السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات، ولنا على ذلک شاهد العيان فى الأمم التى أدركها اليأس وسقطت فى أيدى الأجانب.

ونظن أنه يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم فى الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منّا وليسوا ببعيد عنّا.

عجبًا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة؟! كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة؟! وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل؟! والأمل وحب الكرامة طبيعيان فى الإنسان، بعد إمعان النظر نجد السبب فى ذلک ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوّته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصدّه بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، ويسكن إلى عجزه، فييأس ويقنط، ويذل ويسفل اعتقادًا منه بأنه لا دافع لتلک الموانع التى تعاصت على قدرته، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل إلى العمل لا ستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع فى الشقاء الأبدى، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبرًا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى، وأن ذلک القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس، وتغتال آماله غائلة القنوط، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة، فيركن إليها فى أعماله، ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقًا، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثًا فى مدافعتها معتمدًا على أن قدرة الله أعظم منها، وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب، فلا يمل ولا يكل، ولا تدركه السآمة، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء، ويلقى قيادهم إلى الأذلاء، وأن يدک الجبال ويشق البحار، ويمكن الضعفاء من نواصى الأقوياء، وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار، فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الأولى والآخرة، وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين: (إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ) [يوسف: ٨٧]، وبما حكى من قول نبيه إبراهيم: (وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ) [الحجر: ٥٦]، فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر، ومن أين يطرق اليأس قلبًا عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة؟!

لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم، ولا يسوغ لهم أيمانهم أن يرضخوا للذل، ويرضوا للضيم، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم، فإن لهم ملوكًا عظامًا، ولا يزال فى أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض، وإن من الحق أن نقول إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها، وإن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها والفرص دائمًا تمد أيديها إليهم تطلب إنهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملّتهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم، فأى موجب لليأس وأىّ داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى؟ (فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ) [يونس: ٣٢]، هل يكون للقانطين فيهم من عذر؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا؟ ماذا يبتغون من الحياة إن كانت فى ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم؟ أيطمئنون وهم بين أجنبى حاكم، وبغيض شامت، ومقبح غبى، ومشنع دنى، ومعير خسيس، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة فى عداد الأمم، ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة انسانية؟!

كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات! أينسون أنهم كانوا فى الأرض وما طال على ذلك الزمان، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض؟!

إن كان للعامة عذر فى الغفلة عمّا أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون فى علومه، لِمَ لا يسعون فى توحيد متفرق المسلمين؟ لِمَ لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم؟! لِمَ لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم، لِمَ لا يأتون على ما فى الطاقة لتقوية آمال المسلمين، وتذكيرهم بوعود الله التى لا تخلف لمن صدق فى طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم؟!

بلى إن قومًا شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر فى مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة، إلا أن أملنا فى بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم، ليتمكن الجميع من نصر الله (إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وِيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ) [محمد: ٧].

***

رجال الدولة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)[آل عمران: ١١٨].

قالوا تصان البلادو يحرس الملک بالبروج المشيّده، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة، والأهب الوافرة، والأسلحة الجيدة. قلنا نعم هى أحرز وآلات لا بدّ منها للعمل فيما يقى البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذووخبرة، وأولو رأى وحكمة، يتعهدونها بالإصالح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوى التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شئون المملكة، يوطئون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملک على قواعد العدل، ويوقفون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملک على قواعد العدل، ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالک الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التى تليق بها بينها، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن له، ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحمية ضاربة فى نفوسهم آخذة بطباعهم، يجدون فى أنفسهم منبهًا على ما يجب عليهم، وزاجرًا عما لا يليق بهم، وغضاضة وألمًا موجعًا عندما يمس مصلحة الدولة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر له بهذا الإحساس وتلک الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغى، ويصونوها من الخلل الذى ربما يفضى قليله إلى فساد كبير فى الملک، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.

يسهل على حاكم فى أى قبيل أن يكتِّب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات، ولكن من أين يصيب بطانة من أولئک الذين أشرنا إليهم: عقلاء رحماء، وأباة أصفياء، تهمهم حاجات الملک كما تهمهم ضرورات حياتهم؟ لابدّ أو يتبع فى هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، ويراعى ناموس الطبيعة، فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلما يخطىء فى رأيه أو يتأود فى عمله من أخذ به دليلا، وجعل له من هديه مرشدًا. وإذا نظر العاقل فى أنواع الخطأ التى وقعت فى العالم الإنسانى من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنّة الله فى خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملک والرعية، إنما تكون لمن له فى الأمة أصل راسخ ووشيج يشدّ صلته بها، هذه فطرة فطرالله الناس عليها، إن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعى نسبته إليها ونسبتها إليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدفع الضيم عن الداخلين معه فى تلک النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيک فيما تشهده كثيرًا حتى بين العامة عندما يرمى أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام، كسورى ينتقد المصريين أو مصرى ينتقد السوريين)، هذا إلى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما تصيبها من الأرزاء يصيبه سهم منه. خصوصًا إن كان بيده هامات أمورها وفى قبضته زمام التصرف فيها فإن حظه من

المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذى يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشئون الأمة التى هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة.

فعلى ولى الأمر فى الدولة أن لا يكل شيئًا من عمله إلا إلى أحد رجلين: إما رجل يتصل به فى جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة فى نفوس المنتظمين فيها محترمة فى قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفانى فى وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها الاختلافات المشارب اوالأديان، وإما رجل يجتمع معه فى دين قامت جامعته مقام الجنسية، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها، كالدين الأسلامى الذى حل عند المسلمين وإن اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية، فإن كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابقين والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه.

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك فى جنس ولا فى دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم فى الدولة كمثل الأجير فى بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالى أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل، هذا إذا صدقوا فى – أعمالهم يؤدونَ منها بمقدار ما يأخذون من الأجر، واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فإن الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذى هو خادم فيها ولا يسمه شىء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها إذا فقد العيش فيها فارقها وارتد إلى منبته الذى ينتسب إليه، بل هو فى حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته فى جميع شئونه ما عدا الأجر الذى يأخذه، وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد فى طبيعته ولا فى خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يُعلى شأنه، بل لا يجد باعثًا يبعثه على الفكر فيما يقوم مصلحته من أى وجه، هذه حالهم هى لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارًا من الفقر والفاقة وضربوا فى أرض غيرهم طلبًا للعيش من أى طريق؟ وسواء عليهم فى تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا، وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم، يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التى يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب فى الممالك الإسلامية لا يجدون فى أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة)[٢٩] ومن تتبع التواريخ التى تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكى لنا عن سنةُ الله فى خليقته وتصريفه بشئون عباده، رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شىء من أعمالها بيد أجنبى عنها، وإن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت فى هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبى فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية فى أعمالها فإن ذلك كان فى كل دولة آية

٢٩. يقصد الأفغانى فى مهاجمته العنيفة هنا، بعض الأجانب الذين يسيئون إلى البلاد التى آوتهم. ويدعى أن هجومه لا ينطبق اليوم على الأجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد فى ظل القومية العربية.

الخراب والدمار خصوصًا إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التى يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة.

نعم كما يحصل الفساد فى بعض الأخلاق والسجايا الطبيعية لسبب العوارض الخارجية، كذلك يحصل الضعف والفتور فى حمية أبناء الدين أو الأمة، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك، إذا كان ولى الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها. وفى هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل فى نظام الأمة ويضرب الفساد، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلافى من الضرر الذى يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور فى البلاد لأن صاحب اللحمة فى الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته، إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت فى الجبلة، لايمكن محوه بالكلية، فإذا أساء فى عمله مرة ازعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية، فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى، وإن ما شدّ بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات إليها، ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق وإن بعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق، وأخص من بينهم أمراء المسلمين، حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم فى بطون بيوتهم، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم فى ممالكهم، بعدما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان، وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة، وبعدما علمتهم التجارة أنهم إذا ائتمنوا خانوا، وإذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة، أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التى لا تنقص، ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم، ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب، ألم يكن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم؟!

ألا أيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب عنكم؟! (ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ ولا يُحِبُّونَكُمْ) [آل عمران: ١١٩]، قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة فى أمرهم (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها) [آل عمران: ١٢٠]. سارعوا إلى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، واتبعوا سُنّة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كى لا تضلوا ويهوى بكم الخطل إلى أسفل سافلين. ألم تروا، ألم تعلموا، ألم تحسوا، ألم تجربوا، إلى متى؟ إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

***

كم حكمة الله فى حبّ المحمّدة الحقة!

العالم الإنسانى كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ولنا فى كل ما خطّه القلم الإلهى عبرة.

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب فى أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة، فترى أممًا علت وسمت وحلقت فى جو المعالى وجازت فى الرفعة مسارح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا فى الروايات والأحاديث، ومنها أجيال كانت فى ثنى العدم ثم اكتست حلية الوجود، واتخذت من الاجتماع الإنسانى مكان الهامة من الجسد، ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم ومنها ما نراه إلى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهى من شواهق القوة.

فمن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه، وينقبض للآخرة إذا أنكره، وهو فى غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها، فإن سُئل عن السبب قال: سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الأشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته إلى الحقيقة فيقف على ما هيأه الله من الأسباب التى تتبعها أحوال الأمم فى صعودها وهبوطها، ويعلم أن ما سيق من الخير لأمة إنما كان بأيدى آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا، وربما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم ففازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبنى جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكرًا يرفع ومكانة من القلوب تحمد، وتمييزًا عند الخلف بالكرامة وهم لا يخالفون الناس فى جسومهم ودماءهم، وإنما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار إلى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر، فإذا أخذ مأخذهم، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه فى أياد مقطعة، ورءوس مجذوذة، وأشلاء مبددة، وشعور منثورة، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء، من طلاب الحق والناهجين فى منهاجه، ولا محيص عن سلوكها، وتبدو له غابات وأدغال يرجع إليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم، ولا بد له من اختراقها.

هكذا تنكشف لطالب المعالى موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها، فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقبيه، ويرتدّ إلى أسوأ حاليه ويرتع فى مراتع أمثاله، حتى يروح إلى عطنه الأولى به وهو العدم، وتارة يوحى إليه الإلهام الإلهى أن الشخص فى خاصته والأمم فى هيئاتها ونوع الإنسان فى مجموعه، تطالبها صورة الإبداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس فى السعى، وحملها على ما لا تهوى، ومغالبة الأهوال والغوائل، وفيما أودع الله الإنسان من القوى العالية، والخواص السامية، أكبر مساعد على ما تندفع إليه الهمة، وتنتعث له العزيمة.

إن من أحياه الله بالحياة الإنسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصًا على قهرها كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام إلا حدة فى الجدال، وإصرارًا على إقناع المخاصم، وكثير ممن على شكل الإنسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعانى فيها من الشقاء أشدّ مما يعانيه الإنسان فى إبراز مزايا الإنسان.

إن صاعد الجبل ربما يجد شيئًا من التعب ويخشى مفترسه الكواسر، ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة، ويعتصم بمكانه من الرفعة، وتقصر عنه يد المتناول، أما من أخلد إلى السفل فحظه من الحياة خوف لا ينقطع، وإشفاق لا يزول، كل لحظة توعده بالسقوط فى صيد الصائد، والوقوع بين أنياب الغائل، مات من الناس كثير فى طلب العلاء ولم ينالوا، وبلغ كثير من الطالبين غاية من أملوا، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء من رئموا الخمول، ورضوا بالحياة الحيوانية ـ هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل إلى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد، فإما وصل وإما مات كما يموت الكرام.

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بنى البشر سواء فى العلوم والمعارف، الآداب والفضائل، أو القوانين والنواميس العادلة، أو العسكرية وقوة الحماية، حتى خرج آحاد منها إلى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب، وسلكوا تلك المسالك الوعرة، فبلغوا بأممهم أقصى ما بلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الأزلية فى جميع سيرهم.

ماذا يريد القانون فى خدمة الأمم أو النوع الإنسانى، والمنفقون لحياتهم فى أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم فى النوع؟! أليس قد جعل الله لكل شىء سببا؟! أليس من سُنّة الله فى عباده أن لا تتجه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المديد إلا بعد تصوّر غاية تعود إلى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل، فإن كان الأجل يذهب فى مساورة الآلام الروحية، والعمر ينفد فى مناهدة الأوصاب البدنية؟! فماذا يقصدون من أعمالهم، إن كان يوجد فى أبناء جلدتهم، وذوى ملتهم، من يساعد حوادث الكون على إيلامهم، وممانعتهم فى مقاصدهم، وصدهم عن السعى فيما يرجع خيره إلى أنفس المعارضين، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فماالذى يبتغون من جدهم وكدهم، لا لذة تجتنى، ولا ألم يتقى، فما هذا الباعث القوى الذى غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء؟!

نعم أودع الله فى الإنسان ميلا أقوى من كل ميل، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع، وهو (حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق)، أقول هذا تفاديًا من حب المحمدة من أى وجه حقا كان أو باطلا، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء، والظهور بمظاهر الأخيار، مع تبطن سرائر الأسرار، فإن هذا من أسوأ الحلال، وإنما يعرض بع اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمدة هى الغذاء الروحانى، والمقوّم النفسانى، وكلما قرب الشخص من الكمال الإنسانى تهاون بالشهوات أو ازدرى باللذائذ الحسية، وقوى فيه الميل إلى المحمدة الباقية، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال، تأمّل، إن الفاضل يرى له فى هذا العالم أجلين أقصرهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر، والآخر أبعد من هذا نهاية، وبدايته عندما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعمّ النوع الإنسانى، وغاية هذا الأجل عندما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ. فللروح الفاضلة وجودان: وجود فى بدنها الخاص، ووجود

فى جميع الأبدان، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل، ولا ريب أن هذا الأجل الطويل، وهذا الوجود العريض، خير من ذاك الأجل القصير، وذلك الوجود الكز[٣٠] وحقيق بالإنسان أن يبيع ما هو أدنى بالذى هو خير.

يطول بى الكلام فأقصر، إن الله الذى وهب كل نوع ما به كماله وضع فى جبلة البشر ميلا إلى الحمد، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه، ألم تر انطلاق الألسن فى كل أمة بالثناء على كل من كان سببًا لها فى مجد ورفعة، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كملة، أو تجديد قوة، أو كمال فى فضيلة، أو تقدم فى علم أو صنعة، ويرسمونه فى الألواح، ويسجلون مدحته فى بطون التواريخ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل، ويحفظون له ذكرًا حميدًا يتناقله الأبناء عن الآباء، حتى ينقرضوا وينقرض العالم.

إذا جحدت الأمة حق العامل لها، أو قصرت فى استحسان عمله، ضعفت الهمم، وقل السعى فى المصالح العامة، وانقبضت الأيدى عن تعاطيها، فهبطت شئون الأمة، فافترقت وماتت.

إن الله جلّ شأنه قرن كل حادث بسبب، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح، و الطيب والخبيث، والفضيلة والرذيلة، والمصلحة والمفسدة، وفقد منها التمييز، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها، ولم تعرف معروفًا، ولم تنكر منكرًا، سلبت آحادها الميل إلى المعالى والكمالات، وكانت هذه أشدّ نكاية بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين، ظلم الظالم لا يدوم، وسطوة الغالب لا تثبت، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان بالاعتراف، والفضل بالحمد، فإنه يوجد منها من يشترى هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها، وأما فقد هذا الإحساس الشريف، فهو أشبه علة بالهرم، لا عقبى له إلا الموت والهلاك.

كيف لا تكون المدحة الحقة نعمة على النفوس الإنسانية، يسعى إليها الأعلون من بنى الإنسان، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (وَ رَفَعْنا لَک ذِکْرَکَ) [الشرح: ۴]، وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات، كما سوغ لنبيه ذلک فى قوله: (وَ أَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّک فَحَدِّثْ)[الضحى: ۱۱].

قلب طرفک فى تواريخ الأمم أقصاها وأدناها، تجد برهانًا قاطعًا على أن الأمة متى بخست قيم الأعمال العالية، وازدرى فيها بشأن الفضيلة، فقدت ما به قوامها، وانهدم بناؤها، وذهبت كما ذهب أمس، ولا جرم أن الكفران مقورن بزوال النعم.

يمكننى أن أختم كلامى هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة، التى أقدمت فى هذه الأوقات النحسة، ووقفت على شفير الخطر، وكتبت على نفسها السعى فى توحيد المسلمين، ويسرنا أن نرى عددها كل يوم فى ازدياد، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها إنّه نعم المولى ونعم النصير.

الشرف

---

۳۰. الكز: اليابس والمنقبض، والمراد هنا ما لا خير فيه.

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون، فئة ترى الشرف فى تشييد القصور، والتعالى فى البنيان، وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم، واقتناء الجياد، وركوب العربات، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب، والتزيّن بألوان الألبسة وأنواعها، والتحلى بحلى الجواهر الثمينة، مرصعة بالأحجار الكريمة، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها، وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبك والباشا، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلانى، والثانى من الدرجة الفلانية، حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه، وينهب ثروة أقاربه وذويه، أو بنى ملته ومواطنيه، ليشيد بما يصيب من السحت قصرًا، ويرفع بناء ويزخرف بيتًا، ويقيم له حرّاسًا من المماليك، وخفراء من الغلمان، ويظن بذلك أنه نال مجدًا أبديا وفخارًا سرمديا، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف، وتجد الآخر يذهب فى الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسى برفيع الثياب، ويتزين بأجمل الحلى أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله، ويخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبًا من تلك الألقاب، أو يحصل بها وسامًا أو يستفيد وشاحًا، وسواء عنده الوسائل التى يطلبها أيا كان نوعها، وإن أفضت إلى خراب بلاده، أو تذليل أمته، أو تمزيق ملته، وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف.

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق فى أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم، حتى عموا عن إدراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب فى وهمهم، ماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره وولدانه وحوره لا يحس من أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل، فذاته التى هى أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئًا من الكمال، وإن جميع ما حصله فهو أجنبى عنه، وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء فى تحصيله، ألا يرى أن كثيرًا ممن بلغ مبلغه أوفاقه، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنسانى انخرطت فى سلك الطبقات السافلة، ولم يبق لهم فى القلوب منزلة ولا فى النفوس مكانة.

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرّد منه وخلا بنفسه إن لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور، فى ميدان واحد، ماذا يتصور الزاهى برتبته، المعجب بوسامه، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته، على حال تجل، أو كمال يبجل، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام، أو نزع عنه الوشاح، يعود إلى منزلته من الاحتقار؟ فإن نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه، أليس ذلك تعظيمًا للقب لا للملقب به؟ ألا تكون هذه الكرامة عارضًا سريع الزوال، بل رسمًا ظاهرًا لا يمسّ بواطن القلوب؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر إذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه، وكان اللقب دليلا عليه أو مشيرًا إليه، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعله يمقتها العقلاء من النوع البشرى، وكان الوسام أو اللقب عنوانًا على ما اقترف كاسبه، وعلامة على ما احترم.

انظر وتدبّر ولا تخطىء فما أنت من الصواب ببعيد، إن عثمان الغازى الذى لقبه أعداؤه بأسد (بلاونة) نال رتبة ومُنِحَ لقبًا، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء فى دولته بعدما دفع بروحَه للموت فى المدافعة عن ملته، وجاهد فى إعلاء كلمة دينه، بما شهد له الأعداء والأصدقاء، وإن بعض الأمراء فى ديار إسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الإنجليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم، لافتتاح بلادهم، حتى مكنوا الإنجليز من ديارهم، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد فى إيجاد الوسائل لخروجهم منها، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازى من موقعه على صدور أولئک المخدوعين، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لک أن النيشان يشرف بشرف العمل الذى جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه.

ماذا غرّ أولئک الواهمين على اختلافهم، ألا يعلمون ن الثياب المعلمة بالدم، الموشاة بالنجيع، الملوّنة بالمهج، هى التى حفظت للابسيها ذكرًا حسنًا لا ينقطع، وأثرًا مجيدًا لا يمحى، إن الذين ضرّجوا بدماءهم فى طلب المجد لمللهم، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبهم فى غيابات الجبّ، وانتهت حياتهم فى ظلمات السجن، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجودهم الذين سما ذكرهم إلى شرف الشمس الأعلى، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء، أظن أن الذين كانوا فى الغرفات العالية ينظرون إلى جناتهم وحدائقهم، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم فى حياتهم شأن، إلا ما هو محصور فى دوائر بيوتهم، ولا يختلف عنهم أولئک الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم، فارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاءوا إلى الدنيا، ومتى انكشفوا عنها.

هل سمعنا أن أحدًا يذكر بين بنى البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا؟ نعم يقولون علم وعمل، وأعطى وبذل، ورفع ووضع، وجاهد وكافح، وأباد وأبقى، وما يشاكل ذلک من الأعمال التى لها أثر ثابت، إذا ذكر إسكندر الأكبر هل يخطر بالبال أن كان له قصر أو لا؟ أى أبله يطلب سيرة نابليون الأول فى آثار قصر كان يسكنه، أو فى خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعدما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا، أكان جميع ما ينالون من ذلک بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصى؟ خدع قوم بالأحلام وغرتهم الأوهام. ففرطوا فى شئون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلک الأسماء التى لا مسمى لها، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعدما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها، ونالها غير أهلها، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم، لعلموا أنهم فى أخس المنازل وأبعد المزاجر، وأدركوا خطأهم فى معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب فى طلبه، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم، وما لصق

من الذل والعار بذراريهم، لطرحوا الوشاحات، ونبذوا الوسامات، ولبسوا أثواب الحداد، ونفروا خفافًا وثقالا لطلب الشرف الحقيقى.

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع، وحددتها عقول الكاملين من البشر، وليس لذى شاكلة إنسانية أن يرتاب فى فهمها، إلا من ختم الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

الشرف بهاء للشخص، يحوم عليه بالأنظار، ويوجه إليه الخواطر والأفكار، وجمال يروق حسنه فى البصائر والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن فى أمته أو بنى ملته، أو فى النوع الإنسانى عامة، كإنقاذ من تهلكة، أو كشف لجهالة، أو تنبيه لطلب حق سلب، أو تذكير بمجد سبق، وسؤدد سلق، أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعمّ، أو تحذير من شرّ يغم، أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول، أو جمع كلمة وتجديد رابطة، أو إعادة قوة، وانتشال من ضعف، أو إيقاد حمية أو خصومة لغيرة.

من أتى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ، ويلبس الدلوق والأسمال، ويقتات بنبات البر، ويبيت على تراب الفقر، ويتوسد نشز الأرض، ويضرب فى كل واد، ويتردد بين الربى والوهاد، هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده، يهدى إليه ضالة الألباب، وتائهة الأفئدة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتنفه دارات القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه، له من روحه قصور شاهقة، وغرفات شائقة، ومناظر رائقة، وجمال باهر، ونور زاهر، لا يكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يستر حتى يبصر، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين، حياة طيبة فى القلوب وعزة مشرقة فى جبهة الزمان (وَ فِى ذلِک فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ)[المطففين: ٢٦].

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه، فيسلقونه، بالألسنة، ويرشفونه بسهام اللوم، ولا تروق فى أنظارهم أزهار أعماله، ولا أنوار مزاهره، لبعدها عن فهمهم، وغرابتها على حواسهم، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة، التى عدوّها شرفًا، وحسبوها مجدًا، وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء، وإنما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد، ويألف روائح القذر، لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل مَنْ لا خلاق لهم، أو يقصده بالإضرار من لا ذمة له، ولكنهم بأنفسهم يهزءون، وبمصالحهم يضرون، ولا يطول عليهم الزمان فى هذا العمى، بل لا يلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها، ويطعموا من جناها، ولا يسعهم بعد ذلک إلا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وإن كان دونهم فى تلک الزخارف التى لا قيمة لها فى نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندمًا على الخطيئة، وأسفًا على السيئة وألمًا فى قلوبهم، تهيجه ذكرى ما قاموا به من سوء عملهم، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم، هكذا تمنح العناية الإلهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا، فإذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التى فاضت منه على نجوم هاديات، وبدور منيرات، نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه، ولكنه قائم فى الأفئدة، شاهد على الألسنة، حى عند ربه، ونعمت الحياة حياته، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

***

الأمة وسلطة الحاكم المستبد

(وَ ما ظَلَمَهُمُ اللّهُ ولكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [آل عمران: ١١٧].

إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد، ولا تستشار فى مصالحها، ولا أثر لإرادتها، فى منافعها العمومية، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيئته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير، فتعتورها السعادة والشقاء، ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، ويتناوبها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها، فهو تابع لحال الحاكم فإن كان حاكمها عالمًا حازمًا أصيل الرأى، عالى الهمة، رفيع المقصد قويم الطبع، ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم ومهّد لها طرق اليسار والثروة، وفتح لها أبوابًا للتفنن فى الصناع، والحذق فى جميع لوازم الحياة، وبعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضيم، والأنفة من الذل، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير.

وإن كان حاكمها جاهلا سيىء الطبع، سافل الهمة، شرهًا مغتلمًا جبانًا، ضعيف الرأى، أحمق الجنان، خسيس النفس، معوج الطبيعة، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل، وفتح أبوابًا للعدوان، فيتغلب القوى على حقوق الضعيف، ويختل النظام، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة، ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة.

عند ذلك إن كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسرى فساده إلى جميع البدن فيمزقه. وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات «استبدلوا الخبيث بالطيب»، وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شئونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء، فأنذرها بمضض العبودية، وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم، جزاء على ما فرطوا فى أمورهم: (وَ ما رَبُّک بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ) [فصلت: ۴۶].

***

دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان

«إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم»

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها فى خدمة أوطانها واعتدالها فى مشاربها وزادنا مسرّة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب الفارسى مما تظن فيه تنبيهًا لأفكار المسلمين، واستلفاتا لعقولهم إلى ما فيه خيرهم، فلها منّا ومن كل مخلص فى محبة ملته أوفر الشكر، خصوصًا جريدة (اطلاع) التى تطبع فى مدينة (طهران). وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة فى جميع الأقطار الإسلامية، فإن جميعها بعد بلاد العرب، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية، فهى فى الشرق كاللسان الفرنساوى فى الغرب، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة، وأذهانهم الصافية، وترشده إليه عقولهم العالية، خصوصًا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الإسلامية، وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين، لا سيما فى الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين.

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم، وقد زادهما ارتباطًا اجتماعيا فى الديانة الحقّة الإسلامية، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئى لا يدعو إلى شقّ العصا، وتمزيق نسيج الاتحاد، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سببا فى تخالف عنيف.

ليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية، وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا فى بداية الإسلام بنشر علومه، وحفظ أحكامه وكشف أسراره، وما قصروا فى خدمة الشرع الشريف بأيّه وسيلة.

نعم البخارى ومسلم والنيسابورى والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود والبغوى وأبو جعفر البلخى والكلينى وغيرهم ممن أنبتتهم أراضى إيران، أبوبكر الرازى الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازى ممن نشأوا فى طهران، أبو حامد الغزالى حجة الإسلام، وأبو إسحق الإسفراينى، والبيضاوى، وخواجة نصير الدين الطوسى والأبهرى وعضد الملة والدين، وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار للمسلمين، الفيلسوف الشهير أبو على بن سينا، وشهاب الدين المقتول، ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس. إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى، وضبط أصوله، وتأسيس فنونه، منهم سيبويه، وأبو على الفارسى، والرضى، ومنهم عبد القاهر الجرجانى، مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية، وصاحب صحاح الجوهرى من إحدى قراهم، ومجد الدين الفيروزآبادى، من إحدى بلدانهم، الزمخشرى، والسكاكى، وأبو الفرج الأصفهانى، وبديع الزمان الهمدانى، وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن، وشيدوا معالم الدين، كلهم من أرض فارس.

الطبرى أو المؤرخين، والإصطخرى، والقزوينى، أول الجغرافيين، كانوا من بلاد فارس، الشبلى كان من نهاوند، وأبو يزيد البسطامى كان من بسطام، والأستاذ الهروى ـ وهو الأستاذ الحقيقى للشيخ محيى الدين بن العربى ـ كان من هراة وكلها بلاد إيران.

هل يُنسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوى والآمدى، والمرغينانى، والسرخسى، والسعد التفتازانى، والسيد الشريف والأبيوردى، وكلهم من أبناء فارس، من أين كان القطب الشيرازى، والصدر الشيرازى ورأس الحكمة فى المتأخرين مير باقر الداماد، ومير فندركسى وغيرهم كانوا من بلاد فارس؟ أى فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى، أى مزية مَنَّ الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لا قتنائها، نعم وفيهم جاء من قول النبى صلى الله عليه وسلم: «لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس».

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم فى العلم، وانظروا إلى آثاركم فى الإسلام، وكونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية، أنتم بما سبق لكم أحقّ الناس بالسعى فى استرجاع ما كان لكم فى فتوة الإسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم، أظن لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين، لتكونوا بالاتحاد معهم حصنًا حصينًا، وحرزًا منيعًا، تقف دونه أقدام الطامعين، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين.

هل يخفى عليكم أن كل مسلم فى الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين، حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافى والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة.

هذا آن التآخى والتوافق، هذه أوقات التحالف والتواثق، أحاط الأعداء ببلادكم، شرقًا وغربًا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه، حتى تمكنه الفرصة من شنّ الغارة على أطراف بلادكم، فلو ضاعت الفرصة فى هذا الوقت فر بما لا تصادفونها فى غيره، الإنجليز فى ارتباك شديد فى المسألة المصرية مع ضعفهم فى القوة العسكرية، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم.

الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شيبوبته أشد الناس عداوة للإنجليز، وبينه وبينهم حزازات لا تزول، بل نقول إن عداوة الإنجليز سارية فى عروق الأفغانيين عمومًا ممتزجة بدمائهم، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان، لوجدت قوة إسلامية جديدة فى المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية، وينبعث فيهم وفى سائر المسلمين حياة جديدة، وتتجدد لهم آمال جليلة، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين، هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال جيرانهم فى المسألة المصرية، وتحركت فيهم السواكن، وهى أعظم فرصة لأهل فارس فى دعوتهم للاتحاد معهم.

هذا عمل من أجلّ الأعمال وأجزلها فائدة، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالى إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل فى بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وإن لذلك لأثرًا عظيمًا فى النفوس خصوصًا إن كانت من أقلام العلماء الأعلام، والمجتهدين الكرام.

العالم الإنسانى عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره فى الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر فى تهذيب الناس وتثقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم، فإذا قام

المستبصرون وخطبوا ووعدوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية، والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلا لهم النجاح.

أى فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمّد صلّى الله عليه وسلم، عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشک أن شاه إيران لما اطلع عليه فى سياحاته وشاهد أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعى فيه، إن البادىء بالعمل فى هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصًا وبين العالم عمومًا ويجنى ثمرته فى وقت قريب.

كان الألمانيون يختلفون فى الدين المسيحى على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين فى مذاهب الديانة الإسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعى أثر فى الوحدة السياسية، ظهر الضعف فى الأمة الألمانية، وكثرت عليها عاديات جيرانها، ولم يكن لها كلمة فى سياسة أوروپا، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية، وراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة، أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكّام أوروپا وبيدهم ميزان سياستها.

ورجاؤنا فى الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنک) الأصفهانية، وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع، ويجعلوا له محلا فسيحًا فى جرائدهم، وينشروها فى بلادهم، وبلاد الأفغان، باللسان الفارسى، وهو لسان الطائفتين، وما هى إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله ربّ العالمين.

امتحان الله للمؤمنين

(الم (١) أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ) [العنكبوت: ١ـ٣].

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا، وللإيمان آثار، ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملا، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس، وغرت بها الأمانى، وإنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شىء، وهم خلو من كل شىء، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم. إلا فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة، حاشا حكيمًا أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد، وبشّر وأنذر، وقوله الصدق، ووعده الحق، أن يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر، وظن ليس له أساس، وبالسعادة السرمدية، والنعيم الأبدى، إن المغترّ بزعمه، الحائر فى ظلمات أوهامه الذى لايسهل عليه الإيمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله، ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد. الإيمان يغلب كل هوى، ويقهر كل أمنية، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه، يقول الله وهو أصدق

القائلين: (لا يَسْتَأْذِنُک الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ والْيَوْمِ الْ آخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ واللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّما يَسْتَأْذِنُک الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِی رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) [التوبة: ۴۴، ۴۵]، هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فی بذل أرواحهم وأموالهم فی أداء فريضة الإيمان، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون.

صدق الله وصدقت كتبه ورسله، إن للعقائد الراسخة آثارًا تظهر فی العزائم والأعمال وتأثيراً فی الأفكار والإرادات لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين، هكذا الإيمان فی جيمع شئونه وطواره، له خواص لا تفارقه، ونزعات لا تزايله، وصفات جليلة لا تنفک عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه، بها كان يمتاز المؤمنون فی الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم، نعم هم الذين صبروا فی نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهبًا إبريزاً صافيًا من كل غش، وأعدّالله لهم جزاء على صبرهم نعيمًا مقيمًا. ما أصعب ابتلاء الله وما أشدّ فتنته وما أدقّ حكمته فی ذلک ليميّز الله الخبيث من الطيب!

نعم إن دون ابتلاء الله خلع العادات، وتحمل الصعوبات، وبذل الأموال وبيع الأرواح، كل خطر فهو تهلكة ينبغی البعد عنها إلا فی الإيمان، فكل تهلكة فيه فهی نجاة، وكل موت فی المحاماة عن الإيمان فهو بقاء أبدی، وكل شقاء فی أداء حقوق الإيمان فهو سعادة سرمدية، المؤمن يبذل ما له فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر، وإن كان الشيطان يعده الفقر، ليس فی النفقة لأداء حق الإيمان تبذير ولو أتت على كل ما فی أيدی المؤمنين، إن للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة، وإن له لذة وراء لذاتها، وإن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها، هكذا يرى المؤمن إن كان الإيمان مسّ قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله.

إن الفرار من محنة الله فی الإيمان مجلبة للخزی الأيدی. إن الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدی. لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق، إن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، إن القيام بفرائض الإيمان محفوف بالمخاطر، مكتنف بالمكاره، كيف لا وأول ما يوجبه الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلک تحت أوامر ربه، لن يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه من نفسه. أول إحساس يلمّ بنفس المؤمن أنه فی هذه الدنيا عابر سبيل إلى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى. وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعی الإيمان، ولا داعی أرفع صوتًا وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه. لا يقبل الله فی صيانة الإيمان عذرًا ولا تعلة ما دامت الرجل تمشی والعين تنظر واليد تعمل. إن امتحان الله للمؤمنين سُنّة من سُننة.

****

(وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هاد) [الرعد: ۳۳]

يوجد بين بنى البشر نفوس لم يرضها الإسلام، ولم تقنع بالكفر، تتلون تلون الحرباء، وتتشكل تشكل الأغوان، وتتقلب تقلب الدهر الخئون، لا ترضى بحال، ولا تنسج على منوال، يضحكون وقت البكاء، ويمرحون عند اشتداد اللأواء، ويبكون لأوقات المسرّة، ويضجرون لسعة الرحمة، مثلهم كمثل الحسك المثلث الأضلاع، كله شوك حيثما قلبته، تراهم فى النهار مسلمين متقلبين بين مذاهب الإسلام يصبحون سنيين ويقيلون شيعيين ويقضون طرف اليوم وهابيين، فإذا جنّ الليل رأيتهم دهريين إباحيين، أولئک الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، منهم أناس من أرباب الجرائد الساقطة فى الهند يريدون أن يتزلّفوا للحكومة الهندية الإنجليزية بما فيه مضرّة أوطانهم وأبناء الملة التى ولدوا فيها لينالوا من ظالميهم جائزة ما، أو ليكون لهم فى دوائرهم اسم ما، فأخذوا يئوّلون بعض فصول العروة الوثقى ويحولونها عن وجهتها جهلا، أو عنادًا ولومًا، ويحرّفون الكلم عن مواضعه على حسب أهوائهم الخسيسة، وطباعهم الخبيثة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون، أولئک قوم عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأن يعرفون به فليس يهمنا أمرهم. وإنا نقدم الشكر للجرائد المهمة الهندية الناهجة فى خدمة أوطانهم منهج الحق، السالكة جادة الاعتدال على ما تعنى به من ترجمة فصول العروة الوثقى إلى اللسان الهندى تعميمًا للفائدة فى أبناء أوطانها، جزاها الله عن المسلمين خيراً.

أسبابُ حفظ الملک

(أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج: ۴۶].

أهلک الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمّر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين، حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا (وَ لا يَظْلِمُ رَبُّک أَحَداً) [الكهف: ۴۹]. وليست أفعاله جزافًا، ولا يصدر عنه شىء عبثًا، أمرالله عباده بالسير فى الأرض (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمجْرِمِينَ) [الأنعام: ۱۱]ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل، فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية الانقلاب الأمم، وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قصّ الله علينا فى كتابه المنزل، يحكم حكمًا لا يخالطه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسّها الضرّ فى شىء إلا وكانت هى الظالمة لنفسها، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعة الحقة، وحرّفت الكلم عن مواضعه، وأوّلت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات.

كما أن للأغذية والأدوية، واختلاف القصول والأهوية، أثرًا ظاهراً فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلک اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية، ولكل طور من أطوار البشر، أثر فى الهيئة

الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميّز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة.

إن تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بنى الإنسان فى هيئة إجماعهم، فيسهل على سره لكل ذى إدراک ، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببًا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة، وجعل التنازع والتغابن علّة للضعف، وداعيًا للسقوط فى هوّة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيأ لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم، فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابًا بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرک سرّ أمرالله فى قوله: (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا) [آل عمران: ١٠٣]، وسرّ نهيه فى قوله (وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال: ۴۶]، أى جاهكم وعظمتكم وعلوّ كلمتكم.

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصحّ الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به، سببًا فى اختلال الأمر وفساد الحال، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شىء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية، ولا تصله به رابطة صحيحة، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سرّه، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان ملكًا ضاع ملكه، أو أميرًا بطل أمره والحوادث عاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرک بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله: (لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) [الممتحنة: ١]، وقوله: (لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)[آل عمران: ١١٨]، وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلک لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلا صالحًا فى الآخرة. وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شىء فإنه سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالغ فى الترف، وبطر فيما أنعم الله عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معًا، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته، أو يواطنه فى مدينته، وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بمالا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء، وإن فيما قصّ الله علينا من حوال المترفين، لأكبر عبرة: (وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْک مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّ قَلِيلاً وكُنّا نَحْنُ الْوارِثِينَ)[القصص: ۵۸]، (حَتّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ(۶۴)

لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنّا لا تُنْصَرُونَ) [المؤمنون: ۶۴، ۶۵]، (ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) [غافر، ۷۵]، هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عمّا أوجب الله عليهم (وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) [طه: ۱۲۴].

ما أوتى الإنسان من العلم إلا قليلا، لا يمكن لإنسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطّلع على منابع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها، خلق الإنسان ضعيفًا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه (وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) [الحجرات: ۱۳]، خُلقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمّة، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه التامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع؟ لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقارًا إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته، وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وإرشادًا فقال: (وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) [آل عمران: ۱۵۹]، وقال فيما امتدح به المؤمنين: (وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ) [الشورى: ۳۸]، أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟! أى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم: (أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) [المؤمنون: ۶۸].

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو ألمح لمحة ا لى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرّضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع فى طباع البشر، يحرّك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه، ويستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدّهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم، فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى إيالاته، وقوّاد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارىء العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا فى إعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشدّ قوتهم، ويقوّى شوكتهم بأى وجه كان ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار.

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم، وهو سرّ الإفصاح والإبهام فى قوله تعالى: (وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) [الأنفال: ۶۰]، أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة. على حسب ما يقتضيه الزمان، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبّه الغافل، ويذكّر الذاهل (فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً)[النساء: ۷۸].

إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك، وقوّة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفى نفوس الأمة من العلل، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التى قامت بها

السموات والأرض، وثبت بها نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والْإِحْسانِ) [النحل: ٩٠]، كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من اجزاء العالم يوجب فناء واضمحلاله، كذلک الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثّت الأوامر الإلهية على العدل، كثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه اليه الأوامر والنواهى فى هذاالباب، العدل هوالحكمة التى امتن الله بها على عباده، و قرنها بالخير الكثير فقال (ومن يُؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) [البقرة: ٢٦٩] هى مظهر من أجلّ مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

من سار فى الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما ينهدم بناء ملک، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبى، أو استبداد فى الرأى، واستنكاف عن المشورة، وإهمال فى إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الأشياء فى غير مواضعها، فيكون جور فى الحكم، واختلال فى النظم، وفى كل ذلک حيد عن سنن الله، فيحصل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالک الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضلّ عن هديه، ومنّا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء النفس وخطوات الشيطان، (ذلِک بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَک مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال: ٥٣]، فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عمّا فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، ويستلفتوهم إلى ما أعدّ الله لهم لو استقاموا، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره (فَأَذاقَهُمُ اللّهُ الْخِزْيَ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ولَعَذابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ)[الزمر: ٢٦].

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى: (وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً) [النور: ٥٥]، هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوّض الله إليهم، ووكل إلى ذمتهم، وهم أمناء الدين وحملة الشرع، ورافعو لواء الإسلام، وأوصياء الله على المؤمنين، أعانهم الله على خير أعمالهم، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم.

***

(وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ)

[القصص: ٥].

للإنسان عقل سمى، وفكر على، وحدس قوى، وبراعة فى الاستدلال، ومهارة فى الاستنباط، ومع هذا كله تراه فى رأيه عليلا، ولا يصيب فى مقاصده إلا قليلا، تشابه علل الحوادث فى تنوعها يحول بين المرء وعلم الحوادث الآتية، ويحجب عن نظره جادة الصواب، فيخبط فى خطأ ويخوض فى عمه، وتلتبس عليه المقدمات، فتشبه النتائج، فيختل قياس الاستنباط، هذا من يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكن، أو إمكان مستحيل. لو أن حاذقًا بصيرًا بفنون السياسة، وخبيرًا بأحوال الأمم، ذهب إلى البلاد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة، وساح فى أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين، وما هم فيه من الذلة وأحفاد (تبيوسلدان) وما أصابهم من الفقر والمسكنة، وسلالة سلاطين (أوده) وما نزل بهم من الهوان، ونوابى (كارناتک) وأمراء السند وما حل بهم من الصغار، وتدبر شئون (مرتة) تلک القبيلة العظيمة القاطنة فى (فونا) و(ستارة) وما حولها، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات العظام، ثم لاحظ سلطة الإنجليز وتغلبهم على تلک البلاد وما أعدوه لقهرها من الآلات الحربية، والحصون القوية، وما هم عليه من الحذق فى الحيل والخدع السياسية، وما عليه رعاياهم من الضعف والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان ولو أتى من الفكر فى لواحق هذه الأحوال على غاية جهده لحكم بناء على ما لديه من المقدمات، وما يحضره من الأقيسة، بأن أولئک الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين، قد ضرب عليهم الذل الأبدى، وسجلت عليهم العبودية السرمدية، بل ربما ذهب به الوهم إلى الحكم عليهم بتحتم الفناء ولزوم الاضمحلال، فإن الناظر فى شئونهم ما كان يحضره إلا صولة الإنجليز وسعة اقتدارهم، وخضوع الهنديين وشدة عجزهم، ما كان يخطر فى ذلک الوقت بخاطر أحد أن الأيام تأتى بهذا الحادث الجديد.

إن الروسية تقطع الفيافى من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعة أعلامها ضاربة فى تلک البوادى، زاحفة إلى حدود الهند ما كان يختلج فى صدر أحد فى تلک الأوقات أن حرص الإنجليز وطمعهم فى الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضى قيام رجل السياسة (البرنس بسمارک) لجمع كلمة الدول على مصادمتهم. ما كان يحوم فى خيال أن قائمًا يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية فى أعالى السودان وبعد إرغامه للإنجليز مرات يحرک قلوب الهنديين ويوقظ نائميهم، ويثير الساكن من خواطرهم وينهض الهمم، ويحيى الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته فى أرجاء الهند، نعم ومن أين يكون للإنسان علم هذه الحوادث وهى محجوبة بستار الغيب، فهو معذور فى أحكامه مقسور على أوهامه.

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الإنجليزية، وقد تهيأت ضاربات الشر للوثبة عليها، وليس لها حليف فى أوروپا، وإن استئثارها بمنافع الأمم، وطمعها فى الاختصاص بمصالح العالم، أبعد عنها الأصدقاء، ونفر منها الأولياء، فكانت هذه السقطة بهزة لنهوض الروسية وتقدمها إلى الحدود الهنديد، ومن مصلحة الدول فى

أوروبا خصوصًا دولة الألمان على ما يظهر من جرائدها الرسمية أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند، فإن اندفاع السيل الروسى على تخوم الهند خير لأوروبا عمومًا وألمانيا خصوصًا من انحداره إلى بعض المواقع الأوروبية وأنجع فى صيانة السلم الأوروبى إذا جاء يوم التصادم بين روسيا والإنجليز على حدود الهند وما هو ببعيد كان قضاء السوء على الجيش الإنجليزى فى الصدمة الأولى فيما نظن لقلّة عدده، ولأن العدد الغالب فيه من الهنديين الحرجة صدورهم المجروحة قلوبهم المترقبين لفرصة تمكّنهم من الخروج على حكامهم الظالمين. فإذا وقعت الهزيمة اشتعلت نار الثورة فى عموم الهند، ومحيت سلطة الإنجليز بأيدى الهنديين.

ليس من الممكن للروسية أن تستولى على الأقطار الهندية استيلاء مطلقًا لأول وهلة فإن البلاد واسعة أطرافها شاسعة تحتاج فى إداراتها والمحافظة عليها إلى ملايين من الناس يعسر عليها جذبهم من بلادها البعيدة، نعم إن الإنجليز تسلطوا على الهند ولكن فى أحقاب، فدولة روسيا ملجأة بحكم الضرورة إلى تشكيل ممالک فى الهند يديرها رجال من العلائلات الملكية القديمة من اولاد سلاطين المغول وذرية سيبو سلطان وأمراء السند و(أوده) و(كارناتک) والمرتيين وغيرهم وتكتفى دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينها وبين تلک الممالک. وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الإسلامية المستقلة وبعض ممالک المسلمين وقد يكون من مصلحة دولة إيران وإمارة أفغانستان أن تتفقا مع الروسية اتفاقًا يفيد كلا من المتحالفين.

إن الروسية ما جاءت إلى (مرو) لتهلک عساكرها فى فقارها ولا يصدها عن سيرها إخلاصها فى محبة الإنجليز ولا ارتباطها معهم بعهد مع علمها أن لا عهد لهم، إنما جاءت لتفتح باب التجارة مع أثرى قطر فى الشرق وتهدم سلطان الإنجليز فيه، فإن الأثرة الإنجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمة من الأمم. هذا عارض سوء على حكومة بريطانيا ولكنه سحاب رحمة على الهنديين بما انتقم الله لهم من عدوهم فبذلک فليفرحوا وليعد الأمراء أنفسهم لما أعدالله لهم من العزة بعد الذلة، الحرية بعد العبودية والخلاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا توقّر كبيراً.

لانظن ولن نظن أن يجد الإنجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوروبا ولا من دول المشرق ولا من الهنديين ولا من صنف البشر لأنه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الإنجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شىء من لاضرّ.

إن حكومة الإنجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم وتعلم أن ما ينزل بها من المصائب فى الهند لا يقصر ضرره على حالها فيه ولكنه يزلزل جزائر بريطانيا فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند، كيف لا يشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم فى القوى العسكرية وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم واحتدامها غيضًا عليهم عجّل الله لهم ما فيه خير الضعفاء.

(وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وأُولئِک لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ)

[آل عمران: ١٠٥]

أزفت هجمة الروسية على الهند وسير الدول فى سياستها وحرصها على تقرير السلم فى أرورپا يمد الروس فى مقاصدهم ويهيىء لهم الأسباب ويقرّب مدة الوصول. هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة إيران مع إمارة أفغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل، إن الروسية وإن كانت تنصرها نفرة قلوب الهنديين من الإنجليز إلا أن فى طريقها عقبات لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان. إن الهند بعيد من معسكرات الروس ودونه مسالک مجهولة وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها فى شىء، الروس فى حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفى ضرورة للوقوف على أخلاقهم ومجارى ميلهم ومواقع أهوائهم ولا سبيل يوصلهم إلى ذلک إلا إشراک الفارسيين والأفغانيين فى أعمالهم الحربية والسلمية. ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمهما فى الغنيمة وتشركهما فى المنفعة وإلا كانا سدا محكمًا دون أهم غاياتها.

كيف يمكن للروسية أن تخرق تلک الأجسام الآخذة بطريق الهند وهى مرابض الأسود؟! كيف تتوهم السلامة فى معابرها الضيقة إذا قصدت الاختصاص بالفريسة؟! إن الروسية لا تخفى عليها صعوبة الأمر ولا يغيب عنها أن كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقابًا ونالت فيها أعلى مجد وأعظم فخار يعدّ من أعظم الأعمال ويحتاج لكثرة الأعوان والأنصار وليس بين يديها من يصح به الاستنصار إلا دولة الفرس وحكومة الأفغان فليس من الحكمة فى العمل أن تختص دونها بثمراته خصوصًا وأنها لا تبتغى سوى فتح أبواب الهند للتجارة. فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف فى المصالح العمومية، فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة، وهى أشرف الروابط «رابطة الدين الإسلامى» وليعلموا أن استمرارهم على التخالف فى مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم المسلمين من الهنديين. وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعى فى المذهب سببًا فى خفض الكلمة الإسلامية، وقطع الصلة الحقيقية، فليس من العقل أن يقام من خلاف جزئى علّة لاضمحلال الكل.

أظن أن قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذى جلب على كل منهما ما جلب. هذا الخلاف الفرعى بينهم استعمله بعض السياسيين فى الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوءات، وربما جنوا من غرسهم ثمارًا آتية، ولكنه الآن لا يثمر إلا الدمار والبوار، وهذا مما لا أخاله يخفى على عاقل. لا يجوز للأفغانيين فى هذا الوقت أن يقفوا عند هذا الخلاف الفرعى فليجوزوه إلى الوحدة الأصلية فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين، هذا وقت التآخى، وهذه فرصة الالتئام، ليس للأفغانيين عذر، ولا للتعلة عندهم محل، لا سيما وقد تولى الصدارة فى الدولة الفارسية رجل عظيم القدر رفيع الشأن، واسع العرفان، لا تحجبه شئون الكثرة عن ذات الوحدة، ولا تقف به أطوار التلوين دون منازل

التمكين، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع، يتجلى له الواحد فى مراتب الكثير، وتنجلى له حقيقة الأحدية فى المنازل العددية، فالاتحاد مشربه، والائتلاف مذهبه، وعندى أنه الأب الرحيم لكل إيرانى بدون استثناء، يسعى لجمع كلمتهم بال ملاحظة اختلاف المذهب، ولا تفارق فى الفروع، وإنما يراعى الجامعة الحقة، فعلى الأفغانيين أن يمدوا سواعدهم فى هذه الأوقات لمحالفة إخوانهم ولا يضيعوا هذه الفرصة، وعلى القبيلين أن يجعلوا وفاقهم سياجًا لأوطانهم، وعدة لمكافحة أعدائهم، ومنبعًا فيّاضًا لخير بلادهم، فينالوا شرفًا رفيعًا، ويورثوا أعقابهم مجدًا مخلدًا.

سُنن الله فى الأمم
وتطبيقها على المسلمين

(إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْم حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: ١١].

(ذلِک بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَک مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْم حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ)

[الأنفال: ٥٣].

تلک آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وا لى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد، هل كذب الله رسله، هل ودع أنبياءه وقلاهم، هل غش خلقه وسلک بهم طريق الضلال، نعوذ بالله!! هل أنزل الآيات البينات لغوًا وعبثًا، هل افترت عليه رسله كذبًا، هل اختلقوا عليه إفكًا، هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها، وإشارات لا يدركونها، هل دعاهم إليه بما لا يعقلون، نستغفرالله! أليس قد أنزل القرآن عربيا غير ذى عوج، وفصّل فيه كل أمر وأودعه تبيانًا لكل شىء، تقدّست صفاته وتعالى عمّا يقول الظالمون علوا كبيرًا، هو الصادق فى وعده ووعيده، ما اتخذ رسولا كذابًا، ولا أتى شيئًا عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله: (وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصّالِحُونَ)[الأنبياء، ١٠٥]، ويقول: (وَ لِلّهِ الْعِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وِلِلْمُؤْمِنِينَ)[المنافقون: ٨] وقال: (وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[الروم: ٤٧] وقال: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وكَفى بِاللّهِ شَهِيداً) [الفتح: ٢٨]. هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل إلا من ضلّ عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلک الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده، وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهّد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل لمجدها أمدًا، ولا لعزتها حدا.

هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحيّر فى سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله

معهم، جماعة قاموا بنصرالله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده، هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من عنده، هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاح الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين، ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة، كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهينون بها، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة، وتمكن فى نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها، مالم تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدًا فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسى إلى احشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، تتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة، ويمسون فى كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشدّ من الرجاء لهم.

هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد، وهو صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلّف إلى تلك الدول الأجنبية ويا للمصيبة ويا للرزية.

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط، وما علّة هذا الانحطاط؟ هل نسىء الظن بالوعود الإلهية؟ معاذالله، هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ ونعوذ بالله! هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا؟ حاشاه سبحانه، لا كان شىء من ذلک ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننًا متبعة، ثم قال: (وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً) [الأحزاب: ۶۲].

أرشدنا سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلک السنن التى سنّها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغيّر ما بقوم من عزة وسلطان، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغيّر أولئک القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة والتدبر فى أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنّة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن

الاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها، سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى فى الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال، علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان، هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح، هل غيّرالله ما بنا قبل أن نغيّر ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه وبدّل فى أمرنا سنته، حاشاه وتعالى عمّا يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنّا شيئًا، فبدّل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية، نبذنا أوامر الله ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه، كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنّا يغتصبون ديارنا، ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى فى أحد منّا حراكًا.

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئًا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقًا وغربًا، وكاد يتقطع ما بيننا، لا يحن أخٌ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلاً ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمسّ سواد القلوب؟! هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟! هل ظنوا أن لا يبتلى الله ما فى صدورهم، ولا يمحص ما فى قلوبهم؟! ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميّز الخبيث من الطيب، هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته، لا يبخلون فى سبيله بمال، ولا يشحون بنفس؟! فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنًا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟!

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلک إلا إيمانًا وثباتًا، ويقولون فى إقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل، كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى

سبيل الله حى يرزق عند ربه، متمتع بالسعادة الأبدية، فى نعمة من الله ورضوان؟! كيف يخاف مؤمن من غير الله، والله يقول: (فَلا تَخافُوهُمْ وخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٧٥]؟!

فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع فيه خلّة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله الله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلک لرأينا عدل الله فينا واهتدينا، يا سبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلک نصّ الكتاب العزيز، وإجماع الأمة سلفًا وخلفًا، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الإسلامية، صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون لكل ارض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نغرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية، ألا يا أهل القرآن لستم على شىء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى وتتخذوه إمامًا لكم فى جميع أعمالكم، مع مراعاة الحكمة فى العمل، كما كان سلفكم الصالح، ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرءوا منه: (فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْک نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) [محمد: ٢٠]، ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟! نزلت فى وصف من لا إيمان لهم، هل يسر مؤمنًا أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غر كثيرين من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم وما حسنته لديهم أهواؤهم (أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوب أَقْفالُها)[محمد: ٢٤].

أقول ولا أخشى نكيرًا، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان، لا يراعى فى ذلک عذرًا ولا تعلة، وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

مع هذا كلّه نقول إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوّة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضًا يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف، لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نورًا يبهر الأبصار، وأعمالا تحار فيها الأفكار، وإن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الأيام، تبشرنا بأن الله قد أعدّ النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريبًا، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ولصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كلّه، جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل (مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدا)[الكهف: ١٧].

***

الوهم

(اللّهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هى كيلا نضل ونشقى).

ألا قاتل الله الوهم، الوهم طورًا يكون مرآة المزعجات، مجلى المفزعات، وطورًا يكون ممثلا للمسرات، حاكيًا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر، ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويا، والقريب بعيدًا، والمأمن مخافة، والموئل مهلكًا، الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدومًا، والمعدوم موجودًا، الواهم فى كون غير موجود، وعالم غير مشهود، يخبط فيه خبط المصروع، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه. الوهم روح خبيث يلابس الروح الإنسانية وهى فى ظلام الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام، وتسلطت على الإرادات، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون فى مجاهيل، لا يهتدون إلى سبيل، ولا يستقيمون على طريق.

كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة، واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عمّا فى أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة، وأنحاء شاسعة، قواها منقسمة على تلك الأقطار، متوزعة فيها، فلاترى فى كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرا من العدة والعدد، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة، لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على الأمة الإنجليزية، فهى دائما فى رجفة على أملاكها، فى خيفة من تمزّقها وضيائها، تتوجس من كل حادثة فى العالم، وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الإنجليز المتوزعة فى الأنحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء.

ومع هذا كلّه نرى الأمر لم يزل خفيا على الشرقيين، محجوبًا عنهم بحجاب الوهم. يمثل الوهم لكل شرقى أن الإنجليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار فى مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعًا ضاريًا ومفترسًا قويا فينكب عن الطريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصل إلى غايته وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه، بل لا نخطىء إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطًا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى إنجلترا فى

أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها فى جزائر بريطانيا وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحسّ الإنجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما فى ستره ولا ستار أكثف من الوهم، ولهذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام، فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز.

ذهب الإنجليز إلى الهند فى قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال فى ميدان الأراضى الهندية الواسعة فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما أمتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنجليز اغترارًا، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئًا فشيئًا وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلّط على ممالككم، أما نحن ـ الإنجليز ـ فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم. ثم إنا نرى للإنجليز الآن فى الهند والهند الصينية وبورما سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونًا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية، طالب للتخلص منها، يفضل أيّة سلطة سواها، ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الإنجليز، ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز فى الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها، وشدّة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندى انجليزى، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوح من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها، ما لو جمعت قراها لبلغت أكثر من ثلاثمائة الف جندى، هذا فضلا عمّن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الإنجليزية وزال استقلالها بالمرة، فلو لا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها، بل عما هو موجود فيها، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار، وأدركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية، ونظروا إلى ضعف الإنجليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم، وملجأ النجاة تحت أرجلهم، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم، لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة، ولا سفك دماء غزيرة.

يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتبارًا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول، ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع من تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقرب منه، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد فى الطول والعرض إلى حدّلو حصلت فيه أدنى هزّة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة، ورعاياهم فى كل

صقع فى ضجر لا مزيد عليه يترقبون فى كل آن زحفًا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين، لو التفتت تلك الدولة التى تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لو لا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم.

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الإنجليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة أن دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونًا من النفوس فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال، ويتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها فى قوة دولة إنجلترا، فإنما هى فى الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهى فى ارتقاب الفرص لخلع طاعتها، فمتى ارتكبت دولة إنجلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليونًا تقاتل عساكر الإنجليز خصوصًا خمسين مليونا من المسلمين فى حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذًا يلجأون إليه وهم أول قوم حربيين فى البلاد الهندية. ليت العثمانيين يعلمون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين فى الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الإنجليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاة لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم فى أعمالهم، وتعديهم على حقوق السلطان فى مثل المسألة المصرية التى هى فى الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية.

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابى على قسمين، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابى، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم، فكان هذا القسم الثانى فى ريبة من أمره ولا عزيمة من الريب. والقسم الأول مخلد إلى الفشل، فدخل الإنجليز بلا حرب حقيقية وإنما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس، صادف قلوبًا مستعدة فأخذ منها مقامًا، فانحلت الرابطة وتفرّق الناس عن عرابى بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم. ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الإنجليز يبتغون من البلاد شيئًا سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه، فتساهل المصريون فى الأمر بحسن ظنهم فى حكومة الإنجليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية فى رضاء عن تصرفها، بهذا فاز الإنجليز واستقرت أقدامهم، أما وقد مضى الزمان الكافى لظهور غدرهم، وسوء نيّتهم، فلا يوجد من الأهالى المصريين من يميل إليهم، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم، ويود لو يعمل عملا لهلاكهم، ولكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة. إن أهالى مصر كأنهم ذهلوا عن الإسباب التى مكّنت الإنجليز من بلادهم، كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة فى مدافعة الانجليز، ثم تغلبت عليهم القوة الإنجليزية وقهرتهم جميعًا. كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الإنجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم. هذا هو الوهم العجيب. إن الذين كانوا من مدة سنتين سببًا فى تغلّب العساكر الإنجليزية وحلولها فى وادى النيل وأنه لولا هم ما استقرلها قدم فيه، يظنون الآن أن

تلك العساكر قادرة على قهر الأهالى عمومًا وإخضاعهم لحكومة بريطانيا. وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهًا ويجارونهم فى أهوائهم نفاقًا. هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندى. ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الإنجليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة فى الشرقية والبحيرة والفيوم لا رتبك الإنجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها. ألا قاتل الله الوهم.

إن للإنجليز قوة حربية بحرية لا تنكر، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذى ظهر أثره فى سواكن لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين، فلو فرضنا أن الإنجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل فى استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابل إلى أبد الآبدين. إذا كان الأهالى فى داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة. ليس فى الأمر شىء سوى الوهم، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الإنجليز. ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء، صوت عال وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها أن الإنجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمّر البنية. لكن بقى أن يزول هذا الوهم ن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى. ولا يستبدلوا سيدًا جنبيا بسيد آخر. اللهم ارفع عنّا حُجب الأوهام وهييء لنا الرشد فى أمورنا، واحفظنا من الغواية واهدنا إلى خير نهاية.

***

الجُبن

(أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) [النساء: ٧٨]

)قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) [الجمعة: ٨].

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحيّر الألباب، وتدهش الأفكار، ينظر إليها ضعفاء العقول، فيعدونها معجزات، وإن لم تكن فى أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات، وإن لم تكن من تحدى الرسالات، وقد ينسبها الغفل ا لى حركات الأفلاك، وأرواح الكواكب، وموافقة الطوالع، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف، وقذفات الاتفاق، عجزًا عن إدارک الأسباب، وفهم الصواب، وأما من آتاه الله الحكمة، ومنحه الهداية، فيعلم أن الحكيم الخبير جلّ شأنه، وعظمت قدرته، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل، وأنه قد اختص الإنسان من بين الكائنات بموهبة عقيلة، ومقدرة روحانية، يكون بهما مظهرًا لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية، وبهما مظهرًا لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب.

إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح، رأى فى تشابه القوى الإنسانية، وتماثل الفطرة البشرية، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك، وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعدّ كل إنسان للكمال، ومنحه ما يكون به مصدرًا لفضائل الأعمال، على تفاوت لا يظهربه الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق. هنا وقفة الحيرة.. استعداد فطرى للكمال فى خلقة الإنسان، ميل كلى فى كل فرد لأن ينفرد بالفخار، ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لا يخيب طالبًا، ولا يرد سائلا، إذا صدق القاصد فى قصده، وأخلص السالك فى جده، فما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان ا لى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزى، خصوصًا إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله، مصدّقة بوعده ووعيده، ترجو ثوابًا على الباقيات الصالحات، وتخشى عقابًا على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر، يوم تجزى كل نفس بما كسبت (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧، ٨]. ماذا يقعد بالنفوس عن العمل؟! ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل؟ إذا ردت المسببات إلى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علّة هى أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل: «الجبن».

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها، هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها، هوالذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم، هوالذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين، يسهل على النفوس احتمال الذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان، يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام، الجبن يلبس النفس عارًا دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليّة، يرى الجبان وعر المذلات سهلا، وشظف العيش فى المسكنات رفها ونعيما.

و من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت إيلام**

لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الأحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به إلا ألم اللأواء. هذه حياته: أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء وهو يظن أنه أدرك البغية، وحصل المنية.

ما هو الجبن؟ انخذال فى النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الأمراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنًا من أركان الحياة الطبيعية، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت، الموت مآكل كل حى ومصير كل ذى روح، ليس للموت وقت يعرف، ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جلّ شأنه: (وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْض تَمُوتُ) [لقمان: ٣٤].

يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عمّا أعدّه الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله، نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة ـ وهو الشجاعة والإقدام ـ سببًا فى الفناء، يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفًا، ويتوهم أن فى كل خطوة خطرًا، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية، وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم، تكشف له أن تلك المخارف إنما هى أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدّته، ومن كل خير حرمته.

الجُبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام، لتغتال به نفوس الإنسان، وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حيالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة،لا شقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الأعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطيسة، أليس هو الجبن؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء، أليس هو الجبن؟ ربما تتوهم بعد المثال، فتأمل، فإن الخوف من الفقر يرجع الحقيقة إلى الخوف من الموت، وهو علّة الجبن. سهل عليک أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الإنسان، الجبن عارو شنار على كل ذى فطرة انسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجرًا حسنًا ومقامًا كريمًا.

ينبغى أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن)، فإنها أشدّ الموانع عن أداء ما يرضى الله وإنهم لا يبتغون إلا رضاه. يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان، وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين: (أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ..)[النساء: ٧٧].الإقدام فى سبيل الحق، وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته أوسمة يتسم بها المؤمنون، لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة، وتؤتى الزكاة وتكف الأيدى وعد ذلک مما يشترک فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى، بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتدّ بغيره عند فقده، لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وإن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه؟!

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنيين: إما أن يعيش سيدًا عزيزًا، وإما أن يموت مقربًا سعيدًا، وتصعد روحه إلى أعلى عليين، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين.

من يتوهم أن يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد صلى اله عليه وسلم، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان فى شىء. كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه فى دعوى الإيمان، لهذا نؤمل من وَرَثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق، ويذكروا بآيات الله، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته، والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك، وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك بالمعروف ونهى عن المنكر) زمنًا قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرا فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يومًا تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير، فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقودًا ويحفظوا موجودًا، وينالوا عند الله مقامًا محمودًا.

زلزال الإنجليز فى السودان

نقلت الجرائد الإنجليزية برقية وردت إلى جريدة الستنداراد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أيامًا متواليات ومحصله: أن الألسن تلهج فى مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الإنجليزية بقدوم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض فى جميع المعسكرات بأنه زاحف إليهم بجيشين أحدهما يأتى من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لا بدّ أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها، وقد استولى بذلك الإضراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصًا عساكر مدير دونقلا خوفاً وفزعًا. ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا إليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين فى تلك الأطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الإنجليز فى منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة الآيسين. اهـ.

كما نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعى فى معاكسة سير الإنجليز وإقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقة والإمكان قيامًا بما يوجبه الدين والوطن ولا يحتاجون فى الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطانى، فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه بل توجبه فى مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذى عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين، والتوقى من الأرواح الشريرة الخبيثة التى تتجلى فى أشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الألباب ويذهب بهوه الصورى بنور الأبصار، وهى منابع الشرّ ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال. تلك أرواح الأجانب ونفوس الأباعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الأخلاق ويذلون النفوس.

المدافعة عن الوطن. أمرٌ طبيعى وفرض معاشى يكاتف فى دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم فى أدائه. نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة فى مزايا التواريخ عندما يمر النظر إليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وصيغت لهم هياكل من اللعن الأبدى مسربلة بالخزى والعار السرمدى هكذا يعرف الشىء بضده.

لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببًا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذاك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى أى وجه انقلب، القادر على فكر يبديه، أو تدبير يأتيه، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه، فهو الخائن من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون فى النصيحة فقد خان من سوّف عمل اليوم إلى الغد، وتوانى فى تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل، فقد ارتكب خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين وممقوت فى نظر العالم أجمعين. ما أعظم جريمة الخيانة (المساهلة فى شئون الأوطان) يأتى الزمان بطوله على كل شىء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلاّ وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار. محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين. لوث على وجه الزمان ودرن فى صفحة الإمكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدين. لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت فى الإدراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا.

كنّا على يقين ولا نزال عليه، أن الذات الشاهانية وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين هى أجدر الناس بالالتفات ا لى حركة الأعداء فى البلاد الإسلامية وهى لا تألوا جهدًا فى تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الأمم فى الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية، وأنه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الإنجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والإسلامية والمصرية بلغت غشمرة الإنجليز إلى حد لا يحتمل، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور وتفيض بالغيظ منها القلوب وتبلى منها دروع الصبر وتذوب سابغات الجلد.

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسًا، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يبق لكم شيئًا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحق بها وطالما دافعتم عنها فى الأيام السابقة، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية، يطلب استمالة القلوب إليه، وجمع النفوس عليه، فكيف به إذا رسخت أقدامه، وارتكزت أعلامه، وخلا له الجو من المعارضين؟! ماذا ترجون من مطاولته، وماذا تؤملون فى إرخاء العنان له، وماذا تهابون فى معارضته والأخذ على يده؟! أما رجاء الخير منه فوهمٌ فاسد وخيال باطل، فقد رأيتم أنه أفسد

شئونكم، وأقلق راحتكم، وحرم رجالكم من الخدم، وأفقر آلافًا مؤلفة من العائلات، ووهب من بلادكم لأعدائكم وأضرّ بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فأغلق أبواب الكسب فى وجوهكم، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالأوقاف)، وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها. فماذا تخشون منه؟ هل تخشون أن تنقص أموالكم، وثمرات كسبكم إذا أديتم حقوق وطنكم وحاربتم عدوكم؟! ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه، انتقصت الأموال والثمرات، وفاضت العبرات وزادت الحسرات، وإن زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خسارًا وأوسعكم خرابًا ودمارًا، إن رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى إلا افتقر، ولا عظيم إلا احتقر، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم، وأقرءوا حالكم فى تواريخ من سبقكم.

هل تخشون إذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطر على حياتكم؟! يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم فى هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة، الدول متألبة عليه يترقب منها فى كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. إنه مسرع فى سيره منطلقًا إلى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قرارًا مكينًا، ومقرا أمينًا، ولا يخفى عليكم أن المسرع فى جريه يكبه على وجهه عثرة فى مدرة، فلو ظهرت منكم فى هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره واستعليتم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية فى كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوروربا كافة. أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالى البلاد المصرية ـ لا أناله الله ذلك ـ صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول فى معارضته. إن أقوم حجة للدول عليه هى عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة وإصلاح ما كان يظن من الخلل فى مصر فلو تمكن عدوكم بسكونكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم فى قبضة جوره.

فى إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس فى إمكانه أن يضرّ بكم، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحتم فى عجز عن مقاومته وأصبح وفى يده عصى الجبروت لإذلالكم.

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟! أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة، ويهانون ويذلون وكثير منهم يقتلون؟! إن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى أبدانكم ويفعل بإخوانكم فى ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب

أمركم وهذا قصده إليكم وفى إمكانكم أن تستعينوا الله فى التحصن من خطر آجل، بدون ضرر عاجل فإن شئتم فارحموا أنفسكم، وإلا فأنتم ساقطون، فيما منه تخافون.

يا قوم يؤثر فى كتبكم من كلام سلفكم: الشجاع محبب حتى لعدوه، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه، تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالإباء، لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة الدنيا عمّن سواكم؟! ألستم تتشابهون فى الخلقة مع أعدائكم؟! ألستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق، والعقائد الصحيحة؟! ألستم تنتسبون إلى أولئک الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد؟! ألستم تدعون أنكم أشرف عنصراً وأكرم جوهراً فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم، إن كان الموت فهم يخشونه، إن كان الخسار فهم يرهبونه، إنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون.

لأى شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له؟ ولأى سبب لا تقدمون بشيء من شهامتكم فى حفظ ما هو لكم؟! إن هذا لشيء عجاب، هل نذكركم بقول شاعركم:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم**

ليس هذا مقام التذكير وليس المكان مكان المباراة فى المجد والمسابقة إلى معالى الأمور، إنما الكلام الآن فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة، فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر، الذى رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره. أستغفر الله، تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة، لا يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه.

إن صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه وإن الله فى عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللّهِ) [الصف: ١٤]، (وَ لا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٣٩].

***

باب النتف

کاری از مرکز بررسی های اسلامی

http://iscq.ir/fa_default.asp

/http://www.khosroshahi.ir